دستويفسكي

الجريمة والعقاب

رواية

ترجمة

صبحي سلامة

الكتاب: الجريمة والعقاب (رواية)

الكاتب: دستويفسكي

ترجمة: صبحي سلامة

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

دستويفسكي

الجريمة والعقاب (رواية)/ دستويفسكي ، ترجمة: صبحي سلامة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٦٦ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٦٢ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٧٣٣ / ٢٠٢٠

الجريمة والعقاب

من هو دوستويفسكى؟

فيودور ميخايلوڤيتش دوستويڤسكى، ولد بموسكو في ١١ نوفمبر من عام ١٨٢١ ميلادية، وتوفي في سانت بطرسبورج في ٩ فبراير من عام ١٨٨١ ميلادية، وكان روائيا روسيا عبقريا، ومن أهم أعماله قصص "الجريمة والعقاب"، و"الإخوة كارامازوف"، ولد في موسكو وعاش مُعظم حياته في سانت بطرسبورج وتدور معظم أحداث رواياته في أيام روسيا القيصرية، وقُبض عليه وحُكم عليه بالإعدام بتهمة انتمائه لجماعة ليبرالية، وبعدما وضعوا القماش علي عينيه كي يضربوه بالنار جاءه عفو من القيصر الروسي الذي غير حُكم الإعدام للنفي مع الأشغال الشاقة لمدة أربعة أعوام في سيبيريا، وهذه الحادثة وسنوات النفي أثرت كثيراً في نظرته للحياة وتصوره في رواية "ذكريات من منزل الأموات"، ومن أشهر أعماله: "مُذلون مُهانون"، "في قبوي"، "الشياطين"، "الأبله". تم عمل عددا من رواياته كأفلام أنتجتها هوليوود، ومن أشهرها "الإخوة كرامازوڤ" بطولة بول براينر، كما أنتجت السينما المصرية رواية "الإخوة كرامازوڤ" بعنوان "الإخوة الأعداء" و"الجريمة والعقاب" بعنوان "سونيا والمجنون"، وله روايات تمت ترجمتها للعربية، ومن أشهرها من ترجموها كان الدكتور سامي الدروبي الذي ترجم المؤلفات في سلسلة عنوانها "أعمال دوستويڤسكى الأدبية الكاملة" بالعناوين التالية:

- الإخوة كرامازوڤ (رواية طويلة ١٨٨١).

- **الجريمة والعقاب (رواية طويلة ١٨٦٦).**
- **مذلون مهانون (رواية طويلة ١٨٦١).**
- **المساكين (رواية طويلة ١٨٤٦).**
- **الشياطين (رواية طويلة ١٨٧٢).**
- **الأبله (رواية طويلة ١٨٦٧ . ١٨٦٩).**
- **ذكريات من منزل الأموات (رواية ١٨٦٢).**
- **في قبوي (رواية طويلة ١٨٦٤)**
- **الليالي البيضاء (رواية قصيرة ١٨٤٨).**
- **المقامر (رواية طويلة ١٨٦٧).**
- **حلم العمر (رواية طويلة ١٨٥٩).**
- **الزوج الأبدي (رواية طويلة ١٨٧٠)**
- **التمساح (قصة قصيرة ١٨٦٥).**
- **المثل (قصة قصيرة).**

- **قلب ضعيف (قصة قصيرة ١٨٤٨).**
- **شجرة عيد الميلاد والزواج (قصة قصيرة ١٨٤٨).**
- **قصة أليمة (قصة قصيرة ١٨٦٢).**
- **زوجة آخر ورجل تحت السرير (قصة قصيرة).**
- **ذكريات شتاء عن مشاعر صيف (سرد قصصي ١٨٦٣).**
- **مذكرات كاتب (سرد قصصي ١٨٧٣ . ١٨٨١).**

من مذكرات زوجته: قصة" الجريمة والعقاب"

هذا مُقتطف من مُذكرات زوجة الروائي ديستوفيسكي (آنا جريجور ريفنا دوستويفسكي) والتي كتبتها في خمس سنوات كاملة ووقعت في ٧٩٢ صفحة من القطع الكبير، وفي هذا الفصل تتحدث آنا عن قصة صدور رواية الجريمة والعقاب الرواية التي بيعت منها ملايين النسخ وظروف كتابتها حيث تقول:

تأخرت عليه قليلاً في اليوم التالي، فوجدته قلقاً للغاية. قال لي إنه مُلزم بإنهاء الرواية في غضون شهر، فإن دائني مجلة "الوقت" التي كان يُصدرها شقيقه ميخائيل وتعهد هو بتسديد ديونها بعد وفاته هددوه بمصادرة مُمتلكاته وزجه في السجن، وكانت الديون المُستحقة حسب الكمبيالات ثلاثة آلاف روبلا، وبهذا المبلغ باع دوستويفسكي إلى ناشر اسمه ستيلوفسكي حقوق طبع مؤلفاته بثلاثة مجلدات، والتزم فضلاً عن ذلك بتأليف رواية جديدة يدخل ريعها ضمن المبلغ المذكور، وكان ستيلوفسكي أقدم على خطوة غادرة، حيث اشترى قبل ذلك بأبخس الأثمان كمبيالات ديون ميخائيل. فعاد إليه المبلغ الذي دفعه إلى دوستويفسكي. وها هو، فوق ذلك، يشترط تسليم الرواية الجديدة في مدة غير معقولة، وإلا ستعود إليه، حسب العقد الموقع مع دوستويفسكي حقوق نشر مؤلفاته لأجل غير مُسمى.

وكان يأمل بالطبع أن يعجز الكاتب المريض عن الإيفاء بتعهده، لاسيما وأنه كان في عام ١٨٦٦ ذاته على وشك إنهاء (الجريمة والعقاب).

صرت أتردد عليه يومياً في الثانية عشرة، فيُملي عليَّ فصول (المُقامر) حتى الرابعة على ثلاث وجبات بنصف ساعة أو أكثر، وفيما بين ذلك نتحدث في شتى الأمور. وبالتدريج تحسن مزاجه وتعود على الإملاء، فهو يُمارسه لأول مرة. وكان يسره بخاصة الرد على تساؤلاتي عن الأدباء الروس؛ فهو مثلاً يعتبر نيكولاي نكراسوف صديق الطفولة ويُقدر موهبته الشعرية كثيراً. كما يُقدر أبولون مايكوف كشاعر موهوب وإنسان ذكي ومثال للطيبة. ويرى أن إيفان تورغينيف روائي من الدرجة الأولى، ولكنه يأسف لأن هذا الأخير أمضى وقتاً طويلاً في الخارج ولم يعد يتفهم طبيعة روسيا والروس كما ينبغي لكاتب كبير مثله (كانت العلاقة بين دوستويفسكي، وتورغينيف مُعقدة يغلب عليها الجفاء والقطيعة)

وهذا ما دار بين دوستويفسكي والناشر الماكر ستيلوفسكي:

- طبعاً ستقول يا عزيزي فيدور دوستويفسكي ما جاء بـ ستيلوفسكي في هذه الساعة على وجه التحديد؟ سأوفر عليك الإجابة، وأقول لك: يا فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي، إنها الرحمة التي فُطر عليها قلبي، دفعتني إليك دفعاً. كُنت ماراً بالمصادفة أمام بيتك، فرأيت ما

فعل بك الدائنون. لا أستطيع أن أقف مكتوف اليدين وأنا أراهم يُحزنون واحداً من أعظم كُتاب روسيا.

- حسناً يا ستيلوفسكي، دعنا نرفع الأقنعة ونتكلم بصراحة، فأنا أعلم أنك وصبيانك تتلصصون مُنذ أسابيع، وتتجسسون لتعرفوا ماذا سيحدث لي مع الدائنين، فاذكر لي بصراحة سبب حضورك؟

- أرجو ألا تظن أنني سأخبر الدائنين عن نقلك قبل حضورهم اليوم بعض الأثاث إلى منزل صديقك فرانجيل.. لا تخف يا عزيزي من أي وشاية من هذا النوع.

- طبعاً إنك لن تشي بي، إلا إذا لم أوافقك بالطبع على ما جئت من أجله.

- أنا لم آت إلا لأنقذك من الورطة، والآن قُل لي: كم ديونك يا عزيزي فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي؟

- ما الذي يعنيك في هذا الأمر؟

- أنا أعلم أن ديونك حوالي ثلاثة آلاف روبل، وأرجو أن تعتبر المبلغ مُنذ الساعة في جيبك..

- لقاء ماذا تعطيني هذا المبلغ؟

- أرأيت رقة قلبي، وما فُطرت عليه من رحمة إزاء خوفك مني، وتوجسك من مبادرتي!

- لقاء ماذا تدفع لي ثلاثة آلاف روبلا يا ستيلوفسكي؟

- أنت أذكى من أن تجهل ما أريد، فأنت مؤلف، وأنا ناشر، وهذه الثلاثة آلاف روبل سأدفعها لك مُقابل حق طبع ونشر جميع مؤلفاتك السابقة في ثلاثة مجلدات

- ولكنك تعلم أنني تعاقدت مع أخي على أن يقوم بهذا.

- آه.. ذلك كان أيام مجلتكم التعسة التي توقفت عن الصدور منذ أشهر، ثُم إن التعاقد مع أخيك، وهو الآخر مفلس مثلك، لا يُجدي نفعاً.

- ولكن التعاقد بيننا رغم ذلك، لا يزال قائماً.

- حسناً.. حسناً.. إذا كُنت لازلت مُصراً على أن تجعل من هذه العلاقة العاطفية بينك وبين أخيك ذات قيمة في هذا العالم المادي، فالشأن شأنك، ولكن تذكر يا دوستويفسكي أن الدائنين سيعودون إليك بعد عشرة أيام؟ هيا.. هيا.. يا عزيزي، هذه ثلاثة آلاف روبل لقاء حق طبع ونشر مؤلفاتك السابقة، موافق، أليس كذلك؟

- إنك لص.. أفق يا ستيلوفسكي.

- أنا واثق أنك ستوافق على شروطي إذا تصورت نفسك حراً طليقاً بعد تسديد كل ما عليك من ديون لتتفرغ بعدها لأعمالك الأدبية العظيمة في صفاء بال، ونفس خالصة من المتاعب المالية.

- موافق.

- على كل شروطي طبعاً؟!

- ألك شروط أخرى أيضاً؟!

- لا.. لا.. مجرد طمع في كرمك الأدبي، أعني أن نُضمّن العقد تعهدك بكتابة رواية جديدة لم يسبق نشرها، وتكون هذه الرواية فوق البيعة.

- لكن معيني قد نضب يا ستيلوفسكي، وأفكاري لم تعد مُنتظمة، ولا أستطيع أن أعدك بشيء كهذا..

- لا تقل إنه سيعيبك كتابة رواية جديدة من ٤٠٠ صفحة؟

- لا.. لا.. آسف.. لن أفعل.. لن أفعل.

- يا للخسارة، مع إنني جئت ومعي ثلاثة آلاف روبلا!! تصور يا دوستويفسكي ما سيحدث لك بعد عشرة أيام؟

- حسناً.. حسناً.. رواية جديدة من ٤٠٠ صفحة.

- بديع.. بديع.. هذا هو العقد، لقد أعددته سلفاً، لعلمي أنك تُريد أن تنتهي من المتاعب المالية لكي تتفرغ لفنك.. وقّع هُنا يا عزيزي فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي.. لماذا تُضيّع وقتك، إنه يحتوي على الشروط المعتادة، ومع هذا فسأقرأ عليك الشرط الأخير لأنه يحتوي على إضافة، وهي كالتالي: "إذا لم يُقدم الطرف الثاني فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي الرواية الجديدة المشار إليها في البند السابق قبل يوم ٤ نوفمبر، دفع الطرف الأول غرامة قدرها ٤٠٠٠ روبلا، ويُصبح الطرف الأول هو المالك الوحيد لكل حقوق الطبع والنشر لجميع روايات الطرف الثاني، ما صدر منها، وما لم يصدر".

- هذه لصوصية دنيئة، إنك تتصرف بأخلاق الخنازير.

- مُجرد احتياطات لحفظ حقوقي، كما أنها دافع وحافز لك كي تعمل. إن هذه الفقرة لصالحك، وأنا واثق من أنك – أيها المؤلف العظيم – ستُنهي الرواية الجديدة، في أقل من شهر.

بعد فترة استلم دوستويفسكي من الناشر مبلغاً قدره ١٧٦ روبلاً فقط، وقال للمؤلف: "هذا ما تبقى من حقك بعد تسديد جميع ديونك، إذ أنني اشتريت جميع الصكوك من دائنيك، وها هي بحوزتي، وهذا المبلغ ١٧٦ روبلاً هو كل ما تبقى لك من ٣٠٠٠ روبلا. وكان الدائنون قد يئسوا من الحصول على أموالهم، فباعوا صكوكهم بأثمان بخسة للناشر الجشع ستيلوفسكي. وصار دوستويفسكي حُراً طليقاً من الديون،

وفي سرعة متناهية جمع ثيابه في حقيبة كبيرة بالية، وجلس يكتب إلى صديقه فرانجيل:

"أهذا حلم يا عزيزي فرانجيل؟ أيمكنك حقاً أن تتصور صديقك فيدور دوستويفسكي خالياً من أعباء الديون؟! أنا نفسي لا أصدق، ومع هذا فقد حدث تماماً ما لم أتخيله، سددت جميع ديوني، وبعت لشيلوك هذا الزمان اللعين ستيلوفسكي رطلاً من لحم قلبي، سأوضح لك تفاصيل الصفقة الشكسبيرية حين ألقاك في سبادن"

في عام ١٨٦٦ ظهرت القصة التي تضمنها العقد بين المؤلف والناشر، وكانت قصة (الجريمة والعقاب) التي بيعت منها ملايين النسخ وتُرجمت إلى مُعظم لغات العالم، ولم يستفد منها الكاتب لأنها من مُمتلكات الناشر بموجب العقد.

المترجم

القسم الأول

الفصل الأول

الأيام الأولى من شهر يوليو حيث الحر الشديد، وقتها خرج شاب في نهاية العقد الثالث من العمر من غرفته الصغيرة التي يسكنها في أحد أزقة شارع بريولوك، وراح يمشى ببطء مشية المتردد، كان يقطن غرفة صغيرة بذلك المنزل الكبير، وكان من حسن حظه أنه لم يصادف صاحبة المنزل وهو يهبط السلم، فقد كانت المرأة تقطن الطابق الأول، وقد اعتادت أن تترك بابها مفتوحا بحيث صار يتعين على الشاب كلما أراد الخروج أن يستهدف لنيران العدو، وأن يشترك مع صاحبة المنزل في معركة كلامية تشعره في البداية بالفزع والرعب وتنجلي في النهاية عن إذلاله وتجريح شعوره وهدر كرامته ذلك لأنه كان يدين لها ببعض المال، وكان أسعد أيام حياته هو اليوم الذي لا يرى فيه وجهها.

أثر على أعصابه وعلى حالته النفسية أنه كان قد أصيب في المدة الأخيرة بنوع من الانقباض، فاعتزل الناس، وحبس نفسه في غرفته، وأصبح يشعر بأشد النفور لا من وجه صاحبة المنزل فحسب، بل ومن وجوه البشر جميعا.

لقد ألف الهم الذي يُسببه الفقر بعد أن كان الفقر في أحد الأيام أعظم همومه، ولكنه الآن نسيه، وأصبح لا يتمالك نفسه من الضحك كُلما فكر في صاحبة المنزل، وفى الإجراءات الشديدة التي تهدده

باتخاذها ضده، ومع ذلك فإنه كان يؤثر أن يتسلل على السلم في هدوء، ويخرج من المنزل في سلام، على أن يقابل هذه المرأة المخيفة ويصغي إلى مطالبتها وشكايتها وتهديداتها تنفس الصعداء إذن عندما خرج من المنزل، ولكنه دهش لذلك الفزع الذي يصيبه لمجرد التفكير في مقابلة امرأة يدين لها ببعض المال! قال لنفسه:

- كيف يزعجني شيء تافه كهذا، وأنا بسبيل أمر على أعظم جانب من الخطورة؟

وارتسمت على فمه ابتسامة غريبة واستطرد:

- حقا.. إن كل إنسان يجد في متناول يده دواء علله وأدوائه، ولكن الجبن يمنعه من أن يمد يده على أني أتكلم كثيرا ولا أفعل شيئا، أو أنني لا أفعل شيئا ولذلك أتكلم كثيرا، لقد تعلمت الثرثرة خلال هذا الشهر الأخير الذي قضيت أكثره في فراشي، وامتلأ فيه ذهني بالخيالات الكاذبة والأوهام الخرقاء، ولكن إلى أين أنا ذاهب الآن؟ وما الغرض الذي أرمي إليه؟ هل في استطاعتي حقا أن أخرج هذه الخطة المخيفة إلى حيز الوجود؟

كان الجو في ذلك الحي الفقير مشحون بالعفونة، وكان الجو خانقاً، فزادت أعصاب الشاب توترا وارتسمت على وجهه النبيل علامات التأفف والامتعاض، ولكن سرعان ما استولى عليه نوع من الذهول فسار في سبيله دون أن يلقي بالا إلى ما يحيط به، وضبط نفسه أكثر من مرة،

فإذا هو يتمتم بشفتيه كلاماً غير مفهوم، ولاحظ فجأة أن أفكاره قد اضطربت وأنه ضعيف خائر القوى، إنه لم يتناول في اليومين الأخيرين طعاماً يستحق الذكر.

كان ذلك الحي من أفقر وأحقر أحياء المدينة كما ذكرنا، ولهذا كان يرتدي ثوباً بالياً يخجل الرجل الكريم أن يظهر به في الشوارع نهاراً، وأهله من تلك الطبقة التي لا تُقيم وزنا للأناقة، يضاف إلى ذلك أن احتقار الشاب للمجتمع بلغ حداً أصبح معه لا يشعر بالخجل من الظهور في ملابسه البالية، بيد أن ذلك لم يمنعه من أن يقف جامداً عندما مرّ بجماعة من العمال ولاحظ أن أحدهم قد أشار إلى قبعته وقال كلمة جعلت رفاقه ينفجرون ضاحكين.

كانت قبعة الشاب حريرية مُرتفعة قد ابتاعها في أيام الرخاء، فخلع قبعته وراح يتأملها، وقد رسمت عليه أيام البؤس طابعاً مُضحكاً، فتنافرت خيوطها وتهدمت جدرانها ولكنها رغم ذلك ظلت قائمة في الفضاء شامخة بأنفها. لم يشعر الشاب بالمذلة والهوان بقدر ما شعر بالهلع والقلق، وقال لنفسه:

- هذا ما توقعته، فهذه القُبعة المُخيفة ستلفت إليَّ الأنظار، يجب أن أستبدل بها أخرى تلائم ثيابي، إن جميع الذين يرون هذه القبعة سيذكرونها فيما بعد، وعندئذ تصبح دليلا مهما يؤدي إلى القبض عليَّ. كلا.. كلا يجب ألا ألفت الأنظار إليَّ، إن أمثال هذه الأشياء

التافهة تصبح في بعض أحيان على جانب عظيم من الخطورة.

عرف هذا الشاب المكان الذي يقصده، ويعرف أن المسافة بين منزله وبين ذلك المكان لا تتجاوز سبعمائة وثلاثين خطوة، فقد أحصى هذه المسافة مراراً وتكراراً عندما طافت تلك (الخطة) بخاطره كأنها حلم مبهم، إنه لم يخطر له في بداية الأمر أن يجرؤ على انعقاد هذه (الخطة)، ولكنه ظل مع ذلك يفكر فيها ويقلبها على كل وجوهها، وينظر إليها كما ينظر إلى سراب مخيف ومرعب في ذلك الوقت.

بدأ يروض نفسه بالتدريج على تنفيذ (الخطة) رغم شعوره بالتردد والافتقار إلى العزم، وخرج من منزله ذلك المساء وفي نيته أن يقوم بتجربة نهائية قبل أن يُقدم على عمل حاسم على أنه كلما أمعن في السير ازداد اضطرابه إلى أن اقترب من المكان المقصود فارتجفت أعضاؤه وغاص قلبه بين جنبيه.

كان ذلك المكان عند كتلة من الأبنية تنقسم إلى منازل كبيرة تفصل بينها ممرات ضيقة، فنفذ الشاب إلى أحد هذه المنازل وحمد الله على أنه لم يصادف البواب ولم يلفت إليه أنظار الحوانيت، وشعر بارتياح عندما وجد نفسه يصعد درج السلم الضيق المظلم، وقال لنفسه وهو يلهث خوفا وجزعاً:

- إذا استولى عليّ الخوف الآن فماذا يكون من أمري متى جئت لإنفاذ خطتي؟

وصعد السلم ووقف أمام باب في الطابق الرابع، ولاحظ أن بعض الحمالين يشتغلون بنقل الأثاث من الشقة المقابلة، فقال لنفسه:

- هذا بديع، إن سكان الشقة المقابلة على أهبة الرحيل، وستبقى العجوز وحدها في هذا الطابق حتى يأتي ساكن جديد.

دق جرس الباب، فأحدث رنين الجرس في الداخل صوتا ثاقبا جعله يرتجف، وفتح الباب بعد لحظة وأطلت منه امرأة عجوز راحت تصعد الشاب بعينين ضيقتين لامعتين متهما شيء كثير من الارتياب، ولاحظت المرأة وجود الحمالين، فاطمأنت وفتحت الباب على مصراعيه ودعت الشاب للدخول. ودخل الشاب فوجد نفسه في غرفة مظلمة ضيقة، بها باب يؤدي إلى غرفة أخرى ورأى العجوز تنظر إليه بإمعان ولا تحول عينيها الضيقتين عن وجهه.

كانت تناهز الستين من عمرها، وكانت نحيفة الجسم، صغيرة الحجم، قال الشاب بسرعة وبصوت حاول أن يجعله هادئاً:

- اسمي روديون رومانوفتش راسكو لينيكول وأنا من طلاب العلم في الجامعة، وقد جئتك منذ شهر تقريبا.

فقالت المرأة وهي لا تزال تنظر إليه في ارتياب:

- نعم.. إنني أذكر ذلك.. نعم.

فاستطرد روديون وقد أدهشه أن ترتاب المرأة في أمره:

- أصغي إلي يا إيلينا إيفانوفا، إنني جئت الآن لمثل الغرض الذي جئتك من أجله في المرة الأولى.

فلزمت المرأة الصمت لحظة، وبدا عليها كأنها تفكر، ثم أشارت إلى الباب المؤدي إلى الغرفة الداخلية وقالت:

- تفضل بالدخول.

وأفسحت له السبيل فدخل، ووجد نفسه في غرفة ضيقة غطيت جدرانها بورق أصفر وأسدلت على نوافذها ستائر كثيفة من المخمل، أجال البصر حوله بسرعة، فألم بمحتويات الغرفة، وانطبعت في ذهنه كل قطعة من أثاثها، لم تكن هناك ذرة من الغبار على قطع الأثاث أو على أرض الغرفة، فقال لنفسه:

- إن أختها إليزابيث هي التي تعني بنظافة المكان، حقا إن الإنسان لا يجد مثل هذا النظام وهذه النظافة إلا في بيوت هؤلاء العجائز.

وسألته المرأة في شيء من الخشونة:

- ماذا تريد؟

- إنني جئت لأرهن شيئًا، هذا كل ما في الأمر.

وأخرج من جيبه سلسلة معدنية تتدلى منها ساعة فضية عتيقة؛ فقالت المرأة:

- ولكنك لم تقم على سداد المبلغ الذي أقرضتك إياه في المرة السابقة والذي استحّق السداد منذ يومين.

- سأدفع أرباح المبلغ عن شهر آخر يا إيلينا فاعتصمي بالصبر قليلا.

- قد أصبر، وقد أبيع الشيء المرهون في الحال، سأفعل ما يروقني.

- كم تقرضينني على هذه الساعة يا إيلينا إيفانوفا؟

- هذه ساعة حقيرة لا تساوي شيئا، لقد أقرضتك في المرة السابقة ثلاث روبلات على خاتم لا يساوي أكثر من روبل ونصف.

- أعطني الآن خمسة روبلات، فأرد إليك المبلغ الذي اقترضته في المرة السابقة وأسترد الخاتم، إنه خاتم أبي ويهمني ألا أفرط فيه.

- سأعطيك روبلًا ونصف روبل وآخذ الأرباح سلفا.

احتج الشاب صائحاً:

- روبل ونصف فقط؟

فقالت المرأة في حزم:

- لك مطلق الحرية في أن تقبل المبلغ أو ترفضه.

وأعادت إليه الساعة، فتناولها وهم بالرحيل، ولكنه عاد وتذكر أن هذه المرابية هي آخر ملجأ له، ثم إنه كان يرمي من هذه الزيارة إلى غرض آخر، وقال لها في خشونة:

- أعطيني هذا المبلغ.

قصدت إلى غرفة داخلية أخرى وبقي الشاب وحده، وهي بحثت في جيوبها عن حزمة المفاتيح، فأرهف أذنيه وراح ينصت وقال لنفسه:

"لقد علمت الآن أنها تضع المفاتيح في جيبها الأيمن، إنها فتحت درجاً خشبياً، وإذن فهي تخفي أموالها في إحدى الخزائن الحديدية."

وعادت المرأة وهي تقول:

- انتبه لي جيداً.. إذا حسبنا الأرباح على أساس كوبيك عن كل روبل في الشهر والروبل يساوي مائة كوبيكا، كان من حقي أن أخصم ثلاثين كوبيكا عن الروبلات الثلاثة التي اقترضتها في الشهر الماضي، وخمسة عشر كوبيكا عن الروبل والنصف التي ستقترضها الآن، فيكون مجموع الأرباح خمسة وأربعين كوبيكا ولا يبقى لك في هذه الحال سوى روبل ونصف وخمسة كوبيك، إليك هذا المبلغ.

- ماذا تعنين؟ ألا تعطينني الآن سوى روبل واحد وخمسة كوبيكات؟

- ذلك كل ما تستحق.

فتناول الشاب المبلغ دون مناقشة، ولكنه لم يعجل بالرحيل، بل نظر إلى المرأة طويلا، وبدا عليه كأنه يريد أن يقول أو يفعل شيئا، ولكنه لا يعرف هذا الشيء على وجه التحقيق.

وأخيرا قال في شيء من الحيرة:

- ربما أحضرت إليك شيئا آخر في القريب العاجل، نعم سأجيئك بعلبة فضية جميلة استعارها أحد أصدقائي ولكني سأستردها منك.

- سوف نتحدث عنها متى جئت بها.

- إلى اللقاء إذن.

ثم استطردت بقلة اكتراث وهو ينصرف من الغرفة:

- ألا تقضي أختك الوقت معك في هذا المنزل؟ أعني هل تقيمين وحدك دائماً؟

- وما شأنك أنت والسؤال عن هذا؟

فأجاب بتلعثم:

- لا شأن لي، ولا حّق لي في أن أسأل، أردت فقط. أن... إلى اللقاء يا

إلينا إيفانوفا.

وانطلق وهو يتعثر بأذياله، ولم تهدأ وثبات قلبه حتى وجد نفسه في الشارع وهناك راح يتمتم: "كيف أمكن أن يخطر لي مثل هذا الخاطر؟ كلا، كلا، هذا مخيف، كيف أمكن أن أفكر في ارتكاب مثل هذا الإثم؟ إنه إثم بشع مخيف، ومع ذلك فإنني قضيت شهرا في التفكير في..."

وراح يتحدث إلى نفسه بمثل هذا الكلام فلا يخفف الكلام من اضطرابه وانزعاجه، ولا يرفه من الاشمئزاز الذي يملأ جوانب نفسه، وبدأ يشعر بالحاجة إلى شيء أو إلى مكان يفزع إليه من الضيق الذي استولى عليه، فمشى في الطريق يترنح كالثمل ولا يلقي بالا إلى المارة، وصادفته حان فخرج إليها دون تردد. لم يدخل قبلا حانة قذرة كتلك الحانة، ولكنه كان يشعر بشوق إلى قدح من الجعة، ويعتقد أن الظمأ والجوع هما علة ما أصابه من الاضطراب والضعف وخوار العزيمة.

تهالك أمام مائدة صغيرة في ركن مظلم، وطلب قدحا من الجعة، وازدرد محتويات القدح دفعة واحدة.

الفصل الثاني

في العادة يكون روديون بطبيعته شديد النفور من المُجتمعات العامة، ولكنه أحس في هذا المساء برغبة في أن يُلقي بنفسه في تيار المجتمع، وتحركت في أعماقه غزيرة الألفة وحب الاختلاط بالناس.

يُصادف الإنسان في بعض الأحيان شخصاً غريباً عنه ولكنه يثير فضوله واهتمامه بعد أول نظرة، وذاك ما حدث لروديون حين وقع بصره على رجل متقدم في السن يحتل المائدة المجاورة.

لم يحول عينيه عن ذلك الرجل، ولعل السبب أن الرجل لم يحول عينيه عنه كأنه يود أن يتجاذب معه أطراف الحديث، وكان يبدو على ذلك الرجل أنه من موظفي الحكومة، وكان ينظر إلى سائر زبائن الحانة في شيء من الكبرياء والترفع، كما ينظر الرجل العظيم إلى من هم دونه.

والواقع أن نظراته كانت تنم عن ذكاء وحماسة بهما شيء من اختلال القوى العقلية، كان الرجل ينظر حوله تارة، ويدفن وجهه بين كفيه تارة أخرى، وأخيرا رفع رأسه وتحول إلى روديون وقال له في صوت مرتفع وبلهجة من استطاع أن يجمع أطراف شجاعته:

- هل تصفح عن فضولي إذا أنا بادئتك الحديث يا سيدي، إن عيني

المجربتين ترين فيك رغم بساطة ثيابك شابا مثقفا يختلف الاختلاف كله عن رواد هذه الحانة، فاسمح لي بأن أقدم إليك نفسي، اسمي مارميلادوف.

- كلا، إنني مازلت طالب علم، وقد كنت من موظفي الحكومة فهل أنت كذلك من الموظفين؟

فقال الموظف في الحال:

- إن استنتاجاتي قليلاً ما تُخطئ، هذا ما توقعته، لأنها تنهض على تجارب طويلة، أنت إذن من طلاب العلم، ولكن اسمح لي..

ولم يُتم عبارته، بل تناول كأسه، وانتقل إلى مائدة روديون... كان الرجل ثملا، ولكنه يتكلم بصوت واضح وبعبارات سليمة، وقد شعر روديون من فضول الرجل واهتمامه بالتحدث إليه أنه ربما كان مثله، لم يفتح فمه منذ شهر، وقال الرجل بلهجة رزينة:

- إن الفقر يا سيدي ليس رذيلة، وتناول الخمر ليس فضيلة، ولكن الإدمان لا شك فيها، إنك قد تكون فقيرا ومع ذلك تستطيع الاحتفاظ بكبريائك، ولكنك إذا أدمنت الخمر وأفرطت في تعاطيها استحال عليك الاحتفاظ بشيء، والرجل المدمن جدير بأن يطرد من حظيرة المجتمع الإنساني لا بالعصا، وإنما بالمكنسة، وللهيئة الاجتماعية كل الحق في التبرؤ من المدمن، لأنه يعمل بيده على

تجريد نفسه من كل معاني الكرامة. لقد حدث منذ شهر يا سيدي أن مسيو ليزيانوف ضرب زوجتي، فهل تعرف كم آلمني أن تضرب زوجتي وأنا عاجز عن الدفع عنها؟ ولكن اسمح لي أولا أن ألقي عليك سؤالا آخر: هل اتفق لك مرة أنك قضيت ليتلك فوق كومة من القش على ضفة نهر نيفا؟

فأجاب روديون:

- كلا، ولم هذا السؤال؟

- هذا ما فعلته في الليالي الخمس الأخيرة.

وملأ الرجل قدحه وشربه دفعة واحدة. كان يبدو عليه أنه لم يغتسل ولم يخلع ثيابه في الأيام الخمسة الأخيرة، وكانت قطع القش لا تزال عالقة بثيابه وشعر رأسه، وقد أدرك روديون من ضحكات خدم الحانة أن مارميلادوف لا بد أن يكون من الزبائن العريقين في القدم، ولعل الرجل كان كثير الاختلاف على الحانة للتحدث إلى أولئك الذين يقابلهم، فتلك من العادات التي تتأصل في بعض السكيرين، ولاسيما أولئك الذين تعاملهم زوجاتهم بقسوة. فقال مارميلادوف:

- عندما ضرب ليزنانوف زوجتي منذ شهر كنت ثملا وقتئذ، ولكن هل تظن أنني لم أتألم؟ دعني ألقى عليك سؤالا آخر أيها الشاب، هل اتفق لك مرة أنك طلبت قرضا وأنت يائس من إجابة طلبك؟

- ماذا تعني بقولك يائس؟

- أعني أنك تكون واثقا سلفا بأنك لن تحصل على القرض، وأن الشخص الذي تطالبه لن يقرضك، فهو يعلم مثلا أنك لن تقوم على سداد الدين فلماذا يقرضك؟ بدافع الشفقة؟ لقد أثبت ليزبانوف أخيرا أن العلوم الحديثة تنكر وجود الشفقة، وهو رأي سائد في هذه الأيام في إنجلترا التي هي مركز الاقتصاد السياسي. أقول: لماذا يقرضك؟ وأنت واثق بأنه لن يقرضك، ومع ذلك تقصد إليه.

فقاطعه روديون:

- ما دمت أعلم ذلك فلماذا أقصد إليه؟

- لأنك تشعر بأنك أصبحت عاجزا، وأنه يتعين عليك أن تلجأ إلى أي إنسان، هناك ظروف يضطر معها الإنسان أن يفعل أي شيء، كما اضطرت أنا مثلا في أحد الأيام أن أرافق ابنتي إلى مكتب البوليس لتسجيل اسمها في عداد الساقطات.

فنظر روديون لمُحدثه مذعورا وانفجر خدم الحانة وبعض الزبائن ضاحكين، أما مارميلادوف فإنه رمق الخدم مُستنكرا وقال مُحدثا روديون:

- ماذا تهمني سخريتهم، إن ما ذكرته الآن أمر لا خفاء فيه، وإذا استطعت أن أخفيه اليوم فإنني لا أستطيع ذلك غدا والآن حدثني أيها

الشاب، هل تستطيع أو هل تجسر أن تنظر إليَّ وتذكر أنني مغفل.

فلم يجبه روديون وصمت مارميلادوف حتى هبطت عاصفة الضحك التي أثارتها عبارته الأخيرة ثم استطرد:

- ربما كنت مغفلا ولكن مما لا شك فيه أنني متزوج من امرأة مثقفة راجحة العقل كبيرة القلب، لا عيب فيها إلا إنها تقسو علي في بعض الأحيان، نعم يا سيدي إن كل إنسان يبحث عن الشقة وزوجتي قاسية إلى حد ما، وعلى الرغم من أنني أعلم أنها لا تنتف شعر رأسي إلا بدافع الحرص على مصلحتي فإنني...

ولم يتم مارميلادوف عبارته، لأن القوم انفجروا ضاحكين مرة أخرى.

قال الرجل بعد صمت قصير:

- ومهما يكن من أمر فأنا أعتقد أنني أستحق ما يصيبني منها، لأنني حيوان، نعم يا سيدي إنني حيوان.

فقال صاحب الحانة:

- إنني أصدقك.

واستطرد مارملادوف وهو يضرب الطاولة بيده:

- هل تصدق يا سيدي أنني تجرعت بثمن جواربها خمرا؟ ولا أحدثك عن ثمن حذائها، وثمن معطفها، إننا نقيم في غرفة صغيرة باردة وقد أصابها برد في هذه الشتاء فبدت تسعل وتبصق دما. ولي من زوجتي ثلاثة أطفال، والمسكينة تقضي الليل والنهار في غسيل الثياب، وتنظيف الغبار، لأنها ألفت النظام والنظافة قبل أن تقترن بي، ولكن من سوء الحظ أنها ضعيفة البنية، وقد أصيبت بالسل الرئوي وذلك ما يحزنني ويحز في قلبي.

نعم.. إنني حزين من أجلها، وكلما أفرطت في الشراء برح بي الحزن، فأنا أتناول الخمر خصيصا لكي تتضاعف آلامي النفسانية، وأشعر بالمزيد من الحزن.

قال ذلك ووضع رأسه على المائدة بحزن، وبقي كذلك لحظة ثم رفعه وقال:

- يخيل إليَّ أنك تتألم أيها الشاب، لقد رأيت على وجهك علامات الحزن عندما دخلت، ولهذا تعمدت أن أتحدث إليك، وأنا لا أسرد قصة حياتي لكي أثير ضحك هؤلاء الأوغاد الذين سمعوا قصتي مرارا قبل ذلك، وإما لكي أسمع كلمة عطف ورثاء من رجل مثقف مثلك.

لقد انحدرت زوجتي من أسرة عريقة يا سيدي، ونشأت في مدرسة من مدارس الطبقة الأرستقراطية، ونالت قسطا وافراً من التعليم وحذقت الرقص في المدرسة حتى تفوقت على زميلاتها ونالت ميدالية ذهبية

(دبلوما) لولا أنني بعت الميدالية فقد أكلنا ثمنها منذ زمن بعيد، وأما الدبلوما فلا تزال عندها، وقد أبرزتها لصاحبة المنزل منذ أيام رغم ما بين المرأتين من نفور، ولا عجب، فكل تعيس يبحث عن السعادة في ذكريات الماضي، وزوجتي الآن هي من أتعس النساء في العالم، ولكنها تصر على أن تعامل بالاحترام والتبجيل، وعندما ضربها ليزيانوف لم يؤلمها الضرب كما آلمها أن تهان وتخدش كرامتها.

لقد كنا سعيدين في بدء حياتنا الزوجية ولم أقرب الخمر قبل أن أفقد وظيفتي بسبب الاقتصاد في ميزانية الدولة، ولما جئنا إلى هذه العاصمة الغنية بالتماثيل حصلت على وظيفة، ولكني ما لبثت أن فقدتها بسبب الإدمان.

ونحن الآن تقيم في غرفة حقيرة في منزل تملكه مدام ليفزل، ولكن كيف نعيش في هذه الغرفة، وكيف ندفع أجرها؟ فذلك ما لا أعلم به... ويقيم بالمنزل آخرون سوانا، فالمنزل أشبه ما يكون بحديقة حيوانات، ويجب أن أقول لك أنني رزقت بابنة من زوجتي الأولى التي اقترنت بها قبل كاترين إيفانوف، وقد كبرت ابنتي سونيا وترعرعت، ولكنها للأسف لم تتلق قسطا صالحا من التعليم، وقد حاولت منذ أعوام أن أعلمها الجغرافيا والتاريخ، ولكني شخصيا لا أعرف منهما شيئا كثيراً، ثم راح ليزبانوف يعيرها بعض الكتب وعند هذا الحد وقفت ثقافتها.

والآن دعني أسألك في صراحة يا سيدي، كيف تستطيع الفتاة الشريفة

الفقيرة أن تكسب قوتها وتحصل على ما يقيم أودها؟ إذا لم تكن للفتاة مواهب خاصة ممتازة، إنها تربح خمسة عشر كوبيكا في اليوم بشرط أن تواصل العمل باستمرار ولا تضيع دقيقة واحدة، ماذا قلت؟ خمسة عشرة كوبيكا! لقد صنعت سونيا ستة قمصان لسير إيفان كلوسوك، وهو من الوزراء كما تعلم، فهل تدري كما أعطاها؟ لم يعطها شيئا، بل طردها من منزله شر طردة وصب في أذنيها وابلا من أقذع السباب والشتائم بدعوى أنها أخطأت قياس رقبته.

يوماً ما كان أولادي يتضورون ويبكون جوعاً، فراحت كاترين إيفانوف تسير في الغرفة وتضرب يدا بيد وقد ظهرت على خديها بقعتان حمراوان شأن المصابين بالسل الرئوي، ثم وقفت أخيرا أمام سونيا وصاحت في وجهها: ألا تخجلين من نفسك أيتها البليدة؟ ألا تجدين لنفسك عملا غير أن تأكلي وتشربي وتنامي؟

ولك أن تسأل ماذا كان في استطاعة تلك الفتاة المسكينة أن تأكله ما دام الأطفال الصغار يبكون جوعا ولا يجدون كسرة من الخبز يتبلغون بها. وكنت وقتئذ ثملا، فسمعت سونيا تسأل بصوتها العذب الرقيق: ولكن ماذا في استطاعتي أن أفعل يا كاترين إيفانوف؟

وصمت مارميلادوف لحظة ثم استطرد:

- ويجب أن أقول لك بهذه المناسبة يا سيدي: إن امرأة سيئة السمعة معروفة من رجال البوليس تدعى دايا فرانقزوفنا كانت قد تآمرت مع

صاحبة المنزل الذي نقيم فيه على أن تعمل هذه الأخيرة على إغراء سونيا لكي تبيع البنية المسكينة عرضها. وقد اتصلت صاحبة المنزل بسونيا مرارا، وعلمت كاترين إيفانوفا بالأمر فقالت لسونيا متهكمة: لماذا تصرين على الرفض كل هذا الإصرار، كأنك تملكين كنزا ثمينا لا تملكه فتاة سواك؟

ومن الإنصاف ألا تقسو على كاترين إيفانوفا يا سيدي، فقد كانت المسكينة مريضة عليلة، وكانت ترى أطفالها يبكون جوعا، على أنها لم تقصد من هذه الكلمات أن تدفع بسونيا إلى مهاوي الرذيلة والإثم، بل كان كل غرضها أن تضايقها لأنها نفسها كانت في ضيق شديد، وكانت تزداد تبرما بالحياة كلما رأت أولادها يبكون فتنهال عليهم ضربا وركلا، حتى ولو كانوا يبكون جوعا.

كانت الساعة وقتئذ الخامسة، فرأيت سونيا تضم معطفها على منكبيها وتغادر المنزل، وقد عادت في الساعة الثامنة وقصدت لتوها إلى حيث كانت كاترين إيفانوفا فوضعت أمامها ثلاثين روبلا دون أن تقول كلمة واحدة، ثم خلعت معطفها وتمددت في فراشها الصغير وحولت وجهها نحو الجدار، ولم أسمع صوت بكائها ولكن كتفيها ظلا يهتزان طوال الوقت. ورأيت كاترين تنهض من مكانها في هذه اللحظة وتركع في سكون بجانب فراش سونيا، وتقبل فم الفتاة، وقد بقيت في مكانها بجانب الفراش حتى الصباح

وصمت مارميلادوف مرة أخرى، وملأ كأسه وأفرغه في جوفه ثم استطرد:

- وحدث بعد ذلك أن وشت داريا رانتزوفنا بابنتي سونيا، فسجل البوليس اسمها في عداد الساقطات، ونسيت صاحبة المنزل أو تناست أنها كانت في وقت تحض سونيا على السقوط ورفضت رفضا باتا أن تسمح لفتاة ساقطة أن تقيم في منزلها، وانضم إليها في ذلك مسيو ليوياموف، وكانت زوجتي تجادله وتحاول الدفاع عن سونيا حين غضب هذا الرجل وضرب زوجتي كما قلت. كان ليزيانوف يحترم سونيا ويتحبب إليها، ويخطب ودها، ويعيرها ما شاءت من الكتب، فلما علم بما انتهى إليها أمرها غضب لكرامته وصاح: كيف يتسنى لرجل مثقف مثلي أن يعيش في بيت واحد مع فتاة من هذا الطراز؟ فحنقت عليه كاترين إيفانوفا وانقضت عليه بالمكنسة، فضربها.

واضطرت سونيا المسكينة أن تبرح المنزل وأن تقيم في بيت صانع ثياب أعرج يدعى رابرناسموف وهي الآن تأتي لزيارتنا كل مساء بعد هبوط الظلام، وفي أحد الأيام رفعت يدي وعيني إلى السماء مبتهلا، وقصدت إلى مسيو أمانسفيتش محافظ المدينة ورئيسي في آخر وظيفة كنت أشغلها، لقد تنازل هذا الرجل الطيب وأصغى إلى قصتي من البداية إلى النهاية، واغرورقت عيناه بالدموع وقال لي: "سأترك لك فرصة أخرى وأعيدك إلى وظيفتك على مسئوليتي الشخصية، لقد خيبت أملي فيك مرة يا مارميلادوف، فاجتهد أن تستفيد مما حدث لك".

وقبلت قدميه في سري، لأنه لم يكن يسمح لي بأن أفعل ذلك عمليا، فهو رجل عصري مثقف ينفر من هذا النوع من الخضوع والخشوع، ولك أن تتصور يا سيدي كيف قابلتني كاترين عندما علمت بأنني عدت لوظيفتي وسأقبض مرتبا من خزانة الدولة.

وهنا فتح باب الحانة ودخل جماعة من زبائنها العمال، فلم يعبأ مارميلادوف بهم ولم يحول عينيه عن وجه مسته واستطرد:

- كان ذلك منذ خمسة أسابيع يا سيدي وعندما علمت كاترين وسونيا بهذا النبأ السعيد أحاطتني المرأتان من ضروب العطف والعناية ما جعلني أحلق في السماء السابعة. كانت زوجتي تقول لي كلما عدت إليها ثملا: اذهب إلى فراشك أيها الحيوان، أما في ذلك المساء فإنها أبدلت أغطية الفراش وراحت تسير على أصابع قدميها وتنهر الأطفال عن إحداث أية ضجة من شأنها أن تزعجني في نومي. وفي الصباح قدمت إلي خبزا وزبدا لأول مرة منذ بضعة شهور وتعاونت مع سونيا على تجهيزي بثوب نظيف وحذاء جديد ولا أعلم كم كلفهما هذا الثوب وهذا الحذاء، ولكن مما لا شك فيه أنهما باعا بعض الأمتعة. ومنذ ستة أيام أعطيت زوجتي ثلاثة وعشرين روبلا هي مرتبي عن الشهر الأول فأخذتها وعركت أذني بلطف وقالت: "يا لك من مخلوق عزيز".

وأشرق وجه كارميلادوف حين تذكر عبارة زوجه، وحاول أن يبتسم

فارتجفت شفتاه، وارتسمت عليهما ابتسامة تعسة أقرب إلى البكاء واستطرد:

- عفوا يا سيدي إذا كنت أضايقك بكل هذه التفصيلات الحمقاء عن حياتي المنزلية ولكن ثقْ بأنني لا أجد في سردها شيئا من التسلية والترفيه، إنها أشبه بطعنات تمزق قلبي. لقد كان ذلك اليوم من أسعد أيام حياتي، فذهبت أشيد القصور في الهواء، وأفكر كيف أشيد صرح حياتي وسعادتي من جديد، فقررت أن أبتاع لأولادي ثيابا جديدة نظيفة، وأن أوفر لزوجتي أكبر قسط من الراحة، وأنقذ ابنتي سونيا من الأوحال. نعم يا سيدي، إنني فكرت في كل ذلك ووضعت عشرات الخطط، ولكن ما كادت تبزغ شمس اليوم التالي حتى سرقت مفاتيح زوجتي واستوليت على نقودها، ولست أذكر على وجه التحقيق كم كان المبلغ الذي سرقته ولكني واثق بأنه كل ما كان لديها. وقد فررت من المنزل، ولم أعد إليه حتى هذه الساعة، وفقدت وظيفتي، وتركت ثيابي النظيفة وحذائي الجديد في حانة بالقرب من قنطرة أجبستسكي واستعضت عنها بهذا الثوب الزري الذي تراه.

قال الرجل ذلك وضرب جبهته بيده شأن النادم الآسف وأغمض عينيه، وانقضت دقيقة أو بعضها وهو صامت لا يتكلم ثم فتح عينيه فجأة وقال:

- ذهبت اليوم إلى سونيا وطلبت إليها أن تعطيني نقودا لكي أروي ظمئي.

فصاح أحد زبائن الحانة ممن كانوا يصغون إلى حديث مارميلادوف:

- وهل أعطتك؟

فأجاب مارميلادوف موجها كلامه إلى رودون كما لو كان هو السائل:

- إنني دفعت ثمن هذه الزجاجة من نقودها، لقد بحثت في جيوبها فلم تجد سوى ثلاثين كوبيكا فأعطيتها، وأنا واثق بأنها لم تكن تملك سواها، لم تقل لي كلمة واحدة، ولكنها رمقتني فقط بنظرة، نظرة سماوية كتلك التي ترتسم على عيون الملائكة حين يبكون أخطاءنا نحن الآدميين، كانت تلك النظرة أوقع في نفسي من كل تأنيب، ولكني أخذت الثلاثين كوبيكا، وربما هي في أشد الحاجة إليها، لأنها مرغمة على أن تعنى بمظهرها الذي هو رأسمال النساء اللاتي من طرازها، إنك تفهم ما أعني يا سيدي، لقد استوليت على هذا المبلغ بصفتي أباها، استوليت عليه لكي أروي به ظمئي، وقد أنفقته كله الآن في الشراب، فمن ذا الذي تأخذه الشفقة برجل مثلي؟ هل تشعر بالإشفاق علي يا سيدي؟ تكلم، مالي أراك صامتا؟

أراد ملأ كأسه، ولاحظ أن الزجاجة لم يبق بها شيء، فصاح بصاحب الحانة:

- ولماذا يشعر أي إنسان بالشفقة عليك؟

فقهقه بعض العمال ضاحكين، كان مارميلادوف ينتظر هذا السؤال ليطلق العنان لفصاحته، لأنه ما لبث أن نهض واقفا وصاح بحدة:

- لماذا...؟ تقول لماذا؟ إنك على حق يا هذا، فليس ثمة ما يدعو أي إنسان لأن يشفق علي، إنني أستحق أن أصلب فاصلبوني إذا شئتم، فلست أنتظر الشفقة من أحدكم ولكني أنتظر من الله الذي يعرف السرائر ويرى ما في قلوب البشر، الله وحده هو القاضي العادل، وسوف يسأل الله في يوم الدينونة أين هي الفتاة التي أخذتها الشفقة أيها العربيد، ولم تشح بوجهها عنه اشمئزازا واستنكارا، إن هي الفتاة التي ضحت بنفسها من أجل زوجة أبيها العليلة القاسية، ومن أجل أطفال ليسوا من لحمها ومن دمها؟ وسيقول الله لهذه الفتاة: "تعالي لقد غفرت لك خطاياك، لأنك أحببت كثيراً". نعم سيغفر الله لابنتي سونيا، أنا واثق بأنه سيغفر لها.

قال ذلك وتهالك على مقعده ودفن رأسه بين كفيه، وشوهدت قطرات الدموع تسيل من بين أصابعه، وصمت القوم، ورفع مارميلادوف رأسه، وقال محدثا روديون:

- هل لك في أن ترافقني إلى بيتي؟ يجب أن أعود إلى زوجتي وأولادي.

وكان روديون راغبا في الانصراف منذ وقت طويل، ولم يمنعه سوى

شعوره بأن مارميلادوف قد يجتمع لمساعدته، وذلك ما حدث، فإنه ما كاد يسير بضع خطوات حتى لاحظ أن قدمي هذا العربيد أقل ثباتا من لسانه فسمح له بأن يتوكأ على ساعده.

وكان مارميلادوف كلما اقترب من منزله تضاعف اضطرابه وقلقه قال:

- أنا أعلم أنها ستبدأ بجذب شعر رأسي، إنني الآن لا أخاف كاترين إيفانوفا، وماذا يهمني شعر رأسي؟ إنني لا أخاف سوى عينيها والبقعتين الحمراوين اللتين تلتهبان على خديها، وأخاف كذلك صوت تنفساتها، هل لاحظت مرة كيف يتنفس المرضى بالسل الرئوي حين يستولى عليهم الغضب؟ وأخاف أيضا عويل الأولاد وبكاءهم، فالله وحده يعلم ماذا أكلوا إذا لم تكن سونيا قد جاءتهم بطعام، ها نحن قد وصلنا.

دفع مارميلادوف الباب بيده فانفتح بعد أن صعدا سُلماً ضيقاً مُظلماً، ووقفا أمام الباب بالطابق الرابع، ورأى روديون أمامه غرفة صغيرة في أحد أركانها شمعة صغيرة تلقى ضوءها الهزيل على أمتعة قليلة مبعثرة هنا وهناك، ولم يكن بالغرفة سوى فراش واحد، وثلاثة مقاعد، وطاولة قذرة، ووقع بصر روديون على امرأة لم يشك لحظة في أنها كاترين إيفانوفا، كانت متوسطة القامة، نحيفة الجسم، جميلة تقاطيع الوجه، تطل من وجهها الشاحب عينان تلمعان كأنما من تأثير الحمى.. كانت تسير

في الغرفة ويدها فوق صدرها وأنفاسها تتردد بسرعة وبصوت مسموع، ورأى روديون في أحد الأركان طفلا يبكي، ويلوح كأنه قد ضرب في التو واللحظة، ورأى أخته – وهي طفلة في نحو السادسة من عمرها – وقد وقفت بجانبه وأحاطت عنقه بساعدها النحيل.

ووقع بصره في أحد الأركان على طفلة أخرى نائمة على الأرض.

وتريث مارميلادوف بالباب وترك روديون يتقدمه، وشعرت كاترين بدخول روديون فصعدته بعينيها الواسعتين في دهشة وحيرة، ثم وقع بصرها على زوجها وكان راكعا على ركبتيه أمام الباب، فصاحت في صوت يرتجف غضبا:

- أهذا أنت أيها النذل، أيها الوحش؟ أين النقود؟ دعني أفتش جيوبك ولكن هذه ليست ثيابك، ماذا فعلت بالنقود! تكلم؟

فلم يجب مارميلادوف، ورفع ساعديه فوق رأسه ليسهل لها مهمة تفتيشه، لم يكن معه كوبيك واحد، وصاحت كاترين:

- ولكن أين ذهبت النقود؟ يا إلهي، هل يمكن أن يكون قد أنفقها كلها في الشراب، لقد كان في الصندوق اثنا عشر روبلا.

وأطبقت على رأس زوجها، وأمسكت بشعره في عنف واجتذبته إلى داخل الغرفة، واعتصم مارميلادوف بالصبر، وتبعها إلى الغرفة زاحفا على ركبتيه، وتمتم وزوجته تهز رأسه بشدة:

- إنني لا أتألم يا سيدي، إنني أرحب بهذا العقاب.

وذعر الغلام الصغير وارتفع صياحه، واستيقظت أخته من نومها، ووقفت الأخت الكبرى ترتجف فزعا ورعبا، وصاحت كاترين في يأس:

- لقد أضاع النقود كلها، وأضاع ثيابه، والأطفال يبكون جوعا.

ثم تحولت إلى روديون فجأة وهتفت:

- وأنت يا سيد، ألا يخجلك أن تدخل بيوت الناس وأنت ثمل؟ إنك كنت تتناول الخمر معه أليس كذلك؟ اذهب في سبيلك ودعني لا أرى وجهك بعد الآن.

فلم ينتظر روديون لحظة أخرى، وانسحب في الحال، ولكن بعد أن دس يده في جيبه وترك على المائدة كل ما كان معه من نقود.

قال لنفسه بعد أن وصل إلى الشارع وقد تملكه الندم على هذا السخاء:

- إنها حماقة مني أن أترك لهم كل ما أملك، فلديهم سونيا أما أنا فليس لدي أحد.

ولكنه وجد أن الندم لا يُفيده، وأنه لا يستطيع أن يسترد نقوده ولو أراد فقال:

- سونيا بحاجة للاحتفاظ بجمالها، وهي لا تستطيع ذلك بغير نقود، إن اصطياد الرجل كاصطياد الطيور، ومن المحتمل في الحالتين أن يعود الصيد صفر اليدين، فقد تُخرجهم دراهمي من مأزق.. مسكينة أنت يا سونيا، لقد وجدوا فيك بقرة يحلبونها كلما أرادوا وهم الآن لا يشعرون بالحزن والأسى، لقد سكبوا أمامك في البداية قطرات من دموع التماسيح، ثم اطمأنت نفوسهم إلى شقائك؟ الإنسان جبان بطبعه، وهو دائما على استعداد لقبول الأمر الواقع.

وانصرف ذهنه إلى التفكير في أمر آخر قال:

- إذا كنت مخطئا، ولم يكن الإنسان جبانا بطبعه وجب أن يتنكر للمخاوف، ويطأ بقدمه كل عقبة تقف في طريقه.

الفصل الثالث

جاء الصباح واستيقظ معه روديون من نومه قلقاً مُضطرباً، وأجال حوله نظرة سخط وغضب، كانت غرفته صغيرة جدا، وجدرانها مغطاة بورق ممزق يزيد منظرها بؤسا وتعاسة، وسقفها من الانخفاض بحيث يتوهم الإنسان أن رأسه سينفذ منه.

أما الأثاث فكان يتفق مع تعاسة الغرفة، فهو عبارة عن ثلاثة مقاعد قديمة ومائدة صغيرة عليها طائفة من الكتب والجرائد تحجبها طبقة من التراب، وأريكة كبيرة تحتل نصف الغرفة ويتخذها روديون فراشا، وهو كثير ما يرقد على هذه الأريكة دون أن يخلع ثيابه، وإذا أراد أن يرفع الوسادة عمد إلى جميع ثيابه النظيفة والقذرة فوضعها تحت الوسادة.

وكانت صاحبة المنزل قد كفت منذ أسبوعين عن إمداده بالطعام، ولم يخطر له أن يسألها عن السبب، وطابت هذه الحالة للخادمة أنستاسيا التي تقوم بطهي الطعام وننظف المنزل لأنها وفرت عليها بعض العناء، فأصبحت لا تفعل أكثر من أن تكنس الغرفة مرة كل أسبوع.

وقد كانت أنستاسيا هي التي أيقظت روديون في ذلك الصباح، فصاحت به:

- أما زلت نائما؟ إن الساعة الآن التاسعة، وقد جئتك بقدح من الشاي، فهل لك أن تتناوله؟ يا إلهي ما أشد شحوبك!

ففتح روديون عينيه وعرف أنستاسيا! وسألها وهو يجلس في عناء شديد:

- هل أرسلت إلى صاحبة المنزل هذا القدح من الشاي؟

فهزت أنستاسيا كتفها وقالت:

- إنك تحسن الظن بها أكثر مما يجب، هذا القدح قدحي!

- شكرا لك يا أنستاسيا، إنك امرأة كريمة.

وجلست أمامه وهو يتناول الشاي وراحت تتحدث إليه ببساطة أهل الريف:

- إن براسكوفينا بولوفتا (صاحبة المنزل) ستشكوك إلى البوليس!

فقطب الشاب حاجبيه وسأل في قلق: .

- إلى البوليس، ولماذا؟

- لماذا، لأنك لا تدفع أجر الغرفة، وترفض الرحيل

فقال لنفسه وهو يصر بأسنانه:

- ويل للشقية! إنها تفعل ذلك في أتعس الأوقات وأحرج الظروف.

ثم استطرد في صوت مرتفع:

- إنها حمقاء، ولكني سأقابلها وأتحدث إليها غدا.

- أنت شاب ذكي ومثقف، فلماذا تقضي وقتك نائما ولا تفعل شيئا ؟ قيل لي أنك كنت تلقي دروسا لبعض التلاميذ فلماذا لا تفعل شيئا الآن؟

فأجاب روديون ببرود:

- إنني أشتغل.

- وفيم تشتغل؟

فأجاب بعد صمت قصير:

- إنني أشتغل بالتفكير.

فانفجرت أنستاسيا ضاحكة وسألت:

- وهل تربح كثيرا من التفكير؟

الحقيقة أنني لا أشتغل بالتدريس كما كنت أفعل قبلا لأنني لا أملك حذاء أخرج به، وفضلا عن ذلك فإنني أحتقر التدريس لأنه لا يعود عليَّ

بفائدة تذكر، ما قيمة بضعة الكوبيكات التي أقتضيها أجرا للدرس؟

إذن فأنت تريد الحصول على ثروة طائلة بضربة واحدة.

فرمقها بنظرة غريبة وصمت لحظة ثم أجاب:

- أريد ثروة طائلة بضربة واحدة.

- صه إنك تخفيني ونظراتك تلقي الذعر في القلوب، هل تريدني أن أجيئك بقطعة من الخبز؟

- أكون شاكرا لك إذا فعلت.

- صبرا لحظة، لقد نسيت أن أقول لك إن رسالة وردت باسمك في أثناء غيابك.

- رسالة باسمي؟ ممن؟

- وكيف أعلم؟

فصاح روديون وعلى وجهه علامات الانفعال

- إليَّ بهذه الرسالة، إليَّ بها بحق السماء.

وما إن تناول الرسالة وعرف خط أمه حتى امتقع لونه، لم يكن قد تلقى أنباءها منذ مدة طويلة، وهتف:

- اذهبي بحق السماء يا أنستاسيا، لست بحاجة إلى خبز، أريد أن أقرأ الرسالة.

وما أن انصرفت الخادمة حتى فض الرسالة بأصابع مرتجفة.

بكي بحرقة حتى بلل وجهه بالدموع حين رأى خط والدته التي علمته الكتابة والقراءة وهو صغير، كانت رسالة طويلة تملأ بضع صفحات، فأرسل من فمه آهة عميقة، وقرأ:

عزيزي روديون:

يحزنني أنني لم أستطع الكتابة إليك منذ شهرين، ولكني على يقين من أنك ستغفر لي هذا الصمت الطويل، فأنت تعلم كم أحبك وأنك كل شيء عندي وعند شقيقتك دونيا، وقد تألمت أشد الألم حين علمت أنك اضطررت إلى الانقطاع عن الجامعة لافتقارك إلى النقود، وأنك أصبحت بلا مورد من أي نوع، وأنني لا أستطيع أن أساعدك بحال من المعاش الشهري الضئيل الذي أتقاضاه، ويجب أن تعلم أن الخمسة عشر روبلا التي بعثت بها إليك منذ أربعة شهور كانت قرضا من مسيو فاكروشين وهو صديق قديم لأبيك، ولما كانت قد خولته حق الاستيلاء على المعاش الشهري حتى يستوفى دينه فإنه لم يكن في استطاعتي أن أبعث إليك بشيء.

بيد أني أحمد الله الآن على أن في استطاعتي أن أمد إليك يد

المساعدة وأرى لزاما علي أن أحدثك بالظروف التي طرأت على حياتنا وأبدلت مصائرنا، فاعلم إذن أن أختك تقيم معي منذ ستة أسابيع، وأن آلامها والحمد لله قد انتهت منذ ذلك الوقت.

سأحدثك الآن بكل ما كنت أكتمه عنك، فلعلك تذكر أنك كتبت إليَّ منذ شهرين تسألني عن حقيقة ما اتصل بك عن الضيق الذي تعانيه شقيقتك في بيت مسيو أركاديوس ليفانوفتشي، ولم أستطع وقتئذ أن أجيبك إلى ما سألت، لأنني أعلم أنك لا تطيق أن تهان أختك، وأنك إذا علمت بما اتفق لها فإنك لن تتردد في الحضور ولو سيرا على قدميك، لذلك آثرت أن أصمت، ثم إنني شخصيا كنت يائسة حائرة لا أدري ماذا يجب أن أفعل.

عندما قبلت دونيا الاشتغال في بيت أركاديوس كمربية لأولاده اضطررت لسوء الحظ أن تأخذ منه مائة روبل سلفا، على حساب مرتبها الشهري، وقد حصلت على هذا القرض خصيصا لكي تبعث إليك بستين روبلا كنت أنت بحاجة إليها في ذلك الوقت، وقد خدعتك وقتئذ حين أوهمتك أن دونيا ادخرت هذا المبلغ.

ولا شك أن أركاديوس اعتمد على أن دونيا لا تستطيع ترك منزله قبل سداد المبلغ الذي أخذته سلفا، فراح يعاملها بقسوة وقحة سيما إذا أفرط في الشراب، وقد كان في استطاعة دونيا أن تصبر على قسوته وإهانته التي لا مبرر لها، لولا أنها شعرت بأن الشقي يستر غرامه بها

تحت ستار من الخشونة.

وحدث آخر الأمر أن كشف أركاديوس عن نواياه الأثيمة، فراح يحاول إغراء دونيا بالهبات والكلام المعسول، وعرض عليها أن تفر معه إلى قرية أخرى أو بلد آخر وصرح لها بأنه على استعداد لأن يهجر زوجه وأولاده ومنزله من أجلها. وفي استطاعتك أن تدرك مبلغ حزن دونيا وحيرتها، ولم يكن في مقدور البنية المسكينة أن تفر من منزله أولا لأنها تدين له بالمبلغ الذي أخذته سلفا، وثانيا لأنها أشفقت أن تثير برحيلها شكوك مارتا بتروفنا – زوجة أركاديوس – فتكون سببا في وقوع شقاق بين الرجل وامرأته.

واتفق ذات يوم أن فاجأت مارتا بتروفنا زوجها في الحديقة وهو يعمل على إغراء دونيا ويحاول أن يقنعها بالفرار معه، ففهمت المرأة الموقف على غير حقيقته، وظنت أن دونيا هي التي تغري زوجها، فرفضت أن تسمع منها كلمة واحدة، وأمرت الخدم بطردها، وفضحت دونيا في كل منزل وفي كل مكان، حتى بات الناس يشيرون نحوها ويتهامسون، وحتى منعنا الخجل من التردد على الكنيسة كالمعتاد، وهكذا خسرنا كل شيء حتى عطف الناس واحترامهم وإنصافهم.

ولا أحدثك عن الأيام السوداء التي مرت بنا، لا عن الإهانات التي كانت تصب علينا، صفوة القول أنني عجزت عن الاحتمال فلزمت فراشي.

وشاء الله أخيرا أن يرفع عنا هذا الغضب، فندم أركاديوس حين رأى ما أصاب دونيا من مذلة وهوان، واعترف لزوجته بالحقيقة، وأبرز لها خطابا كانت دونيا قد بعثت به إليه، وتوسلت فيه أن يتركها وشأنها، وعنفته على سوء سلوكه وافتقاره إلى الإخلاص لزوجته وأولاده.

وهكذا عادت مارتان بتروفنا إلى صوابها، وكفرت عن خطئها بكل وسيلة ممكنة، فاعتذرت لدونيا علانية في الكنيسة وراحت تتغنى بفضائلها وكرم أخلاقها، وكان من نتائج ذلك أن عرض بعضهم على دونيا الزواج فقبلت.

ومعذرة يا روديون إذا كنا قد كتمنا عنك هذا النبأ، ولم نستطلع رأيك فيه، ولكن عذرنا أن الأمر وقع فجأة ولم يكن ثمة متسع من الوقت للوقوف على ذلك والحصول على موافقتك. وخطيب دونيا هو محام من أقرباء مارتا بتروفنا، يدعى بيتر لوشن، والظاهر أن مارتا امتدحت ابنتي على مسمع منه فعبر عن رغبته في التعرف إليها. وفي أحد الأيام جاءت مارتا ولوشن لزيارتنا، ولم تنته الزيارة حتى كان الرجل قد طلب يد ابنتي، ورجا أن نقطع في الأمر بأسرع ما يمكن لرغبته في الرحيل إلى سان بطرسبرج. وفي استطاعتك أن تدرك مبلغ حدتنا ودهشتنا حيال هذه المفاجأة غير المنتظرة.

أما بيتر لوشن هذا فرجل غني، وهو وإن يكن في الخامسة والأربعين من عمره إلا أنه لا يزال مقبول المنظر، ولا عيب فيه إلا أنه

شديد الكبرياء والاعتداد بنفسه، أو أن هذا ما أظنه عندما قابلته لأول مرة.

إنه الآن في طريقه إلى سان بطرسبرج، ومن المؤكد أنه سيجتمع بك يا روديون فرجائي إليك ألا تتسرع في الحكم عليه كما هي عادتك، أقول لك ذلك رغم ثقتي من أنك سترتاح إلى مقابلته.

وقد تحدثنا مع لوشن طويلا عندما جاء لزيارتنا، وأقول لك الحق أنني لم أفهم أكثر أحاديثه، ولكن دونيا أكدت لي فيما بعد أن نصيبه من الثقافة العصرية محدودة، ولكنه على جانب عظيم من الذكاء ويلوح عليه كذلك أنه طيب القلب.

وأنت تعرف دونيا وتعرف كم هي حكيمة ورزينة وصبورة.

وطبيعي أنه لا توجد بينها وبين لوشن أية عاطفة متبادلة، ولكنها تعرف أن الواجبات الزوجية تحتم عليها أن تعمل على إسعاد زوجها طالما هو يعمل على إسعادها. وهي فضلا عن ذلك واثقة من نفسها، واثقة من قدرتها على احتمال الحياة الزوجية معه، إذا ثبت أنه زوج منصف.

وقد خيل إلينا أول الأمر أنه رجل لا يطاق لأنه شديد الكبرياء شديد الخيلاء، وقد صرح لنا بأنه كان يطمع دائما في الاقتران بفتاة فقيرة لا تملك بائنة (دوطة) لأنه يرى أن الزوج لا يجب أن يكون مدينا لزوجته، بل بالعكس يجب أن تشعر الزوجة بأنها مدينة لزوجها بكسائها

وطعامها ومركزها في الهيئة الاجتماعية.

وأقول الحق أن هذه العبارة آلمتني ولكن دونيا أفهمتني حين قالت: إن الأقوال شيء والأعمال شيء آخر.

ولم يغمض لدونيا جفن في تلك الليلة، وتوهمت أنني مستغرقة في النوم، فنهضت من فراشها وراحت تسير في الغرفة جيئة وذهابا، وأخيرا ركضت أمام تمثال العذراء وابتهلت طويلا، وفي الصباح قالت لي: إنها قررت الاقتران بلوشن.

قلت لك: إن لوشن في طريقه الآن إلى سان بطرسبرج، ورحلته هذه على جانب عظيم من الأهمية، لأن في نيته الانتقال نهائيا إلى هذه المدينة ومباشرة أعماله فيها، ومن المؤكد أنك تستطيع الإفادة منه، ومن رأي دونيا أنك تستطيع أن تشق طريقك في الحياة تحت رعايته وحمايته، فقد تكلم مرة عن حاجته إلى سكرتير، وقال فيما يختص بك: إنه يؤثر الأمرين، وأنه لن يتردد في اتخاذك سكرتيرا له متى تحقق من صلاحيتك للعمل، ومتى كانت هذه الوظيفة لا تتعارض مع استمرارك في الدراسة.

ولم يرد على ذلك، ولكن دونيا شديدة الاهتمام بهذا الموضوع، بل إنها لا تفكر في موضوع سواه، وما دمت تشتغل بدراسة القانون فإنها تأمل في أن تصبح في أحد الأيام زميلا لزوجها أو شريكا له، بل لقد قالت مرة على سبيل الدعابة إنها لم تقبل الاقتران ببيتر لوشن إلا بهذا الرجاء.

على أننا لم نفاتح لوشن بعد ذلك في أمر اشتغالك معه، لأننا نريدك على أن تقابله مقابلة النّد للنّد. وإني الآن أختم رسالتي بنبأ لا شك أنه يسرك كما يسرنا وهو أننا سنجتمع بك في القريب العاجل بعد فراق أربى على ثلاث سنوات.

نعم.. إننا نتأهب الآن للرحيل إلى سان بطرسبرج حيث أنه في النية إتمام الزواج و(دونيا) تكاد أن تطير فرحا لقرب لقائك. وعلى الرغم من أننا سنجتمع بك قريبا، فأني سأبعث إليك بمبلغ من المال، ذلك لأن ثقة الناس بنا قد تضاعفت منذ شاع أن دونيا ستقترن بلوشن، وأصبح فاكروش على استعداد لأن يقرضني ستين أو خمسة وسبعين روبلا بضمان معاشي الشهري، ولذلك سيكون في استطاعتي أن أبعث إليك بخمسة عشر روبلا، وربما بعثت إليك بثلاثين.. أود أن أمدك بالمزيد لولا أن بطرسبرج سيكلفنا كثيرا من النفقات.. لك تحيتي وبركتي يا روديون، دونيا تبعث إليك بألف قبلة، إنها ملاك يا روديون وهي تحبك أكثر من حياتها، فأحبها كما تحبك، نحن نضع كل أملنا فيك، أنت كل شيء بالنسبة إلينا. أما زلت تبتهل إلى الله وتؤمن برحمته كما كنت تفعل وأنت صغير يا روديون؟ أخشى أن يكون وباء الجحود والنكران قد أدركك كما أدرك الكثيرين يا روديون، فإذا كان ذلك فإنني أبتهل إلى الله من أجلك، وأسأله الصفح والغفران ألف قبلة ممن لا تقيم وزنا للحياة بدونك.

بولخيرتا ألكسندروفتش

وطوى روديون الرسالة والدموع تسيل من عينيه.

الفصل الرابع

ملا الألم قلب روديون حين قرأ رسالة أمه، ولكنه قطع برأي في أهم ما جاء في هذه الرسالة، قال:

- هذا الزواج لن يتم ما دمت حيا، ليذهب مسيو لوشن إلى الشيطان، كلا يا أماه، ليس في استطاعتك أن تخدعيني، وأنت يا دونيا إنني أعرف ماذا في نيتك أن تقولي لي، بل وأعرف ما كان يجول بخاطرك حين قضيت تلك الليلة وأنت تروعين وتبتهلين في غرفتك. تقول أمي إن دونيا صبور، وأنا لا أرتاب في ذلك، فقد احتملت دونيا سماجة أركاديوس عامين كاملين، ولكن هل تحتمل سماجة لوشن وكبرياءه ونظريته في الزوجة الفقيرة التي يجب أن تشعر بأنها مدينة لزوجها بطعامها ومركزها في الهيئة الاجتماعية. إنني أعرف دونيا وأعلم أنها تؤثر الخبر الأسود مع الحرية على الطعام الشهي مع الهوان والعبودية، فما السر إذن قبلت هذا الرجل زوجا لها؟

تقول أمي: إن دونيا تحبك أكثر من حياتها، إننا نضع فيك كل أملنا، وأنت كل شيء بالنسبة إلينا في هذه الحياة. ذلك هو مفتاح السر؛ فالأم تضحي بابنتها من أجل ابنها البكر الذي تضع فيه كل أملها في الحياة، أما الابنة فإنها لا تبيع نفسها طمعا في عيش رغيد، بل ولا تبيع نفسها لإنقاذ حياتها، ولكنها تفعل ذلك وتطرح سعادتها وحريتها وراحة

بالها في سوق الدلالة لكي تسعد أخاها الذي تحبه.

نعم، نعم، إن كل شيء واضح جلي، ولكن هل تفهمين هذه التضحية على حقيقتها يا دونيا؟ وهل تقدرين على احتمالها؟ وهل تعلمين أن مصيرك مع لوشن ليس أفضل من مصير سونيا في الهوة التي تتخبط فيها؟ كلا، كلا، إنني لن أقبل هذه التضحية، ولن أسمح بها. وصمت لحظة ثم عاد يسأل نفسه:

- لن أقبل هذه التضحية؟ وكيف أحول دونها؟ وبماذا أستطيع إغراء أمي وأختي عن العدول عنها؟ كل ما أستطيعه هو أن أقف على سعادتهما متى أتممت دراستي، متى أتممت دراستي؟ المهم أن أفعل الآن شيئا من أجلهما، نعم يجب أن أفعل شيئا، يجب أن أحميهما من أمثال أركاديوس وفاكروش، ولكن كيف؟ يا إلهي، هل يجب دائما أن أقبل الأمر الواقع وأنفض يدي من حقي في أن أعمل وأعيش وأحب؟

الفصل الخامس

مشى روديون على غير هدى في ذلك المساء حين وقع بصره فجأة على امرأة عرفها في الحال، كانت تلك المرأة هي إليزابيث شقيقة المرابية إيلينا إيفانوفا التي كانت صورتها تملأ ذهنه طيلة الشهر الأخير.

وكانت إليزابيث تتحدث إلى رجل في أحد الحوانيت، فسمع الرجل يقول لها:

- وإذن أستطيع الاعتماد عليك في بيع هذه الثياب القديمة؟

فهزت إليزابيث رأسها علامة الإيجاب، فسألها الرجل:

- سأعد لك الثياب، فهل تأخذينها غدا؟

- حسنا، ستجدينني في انتظارك غدا في الساعة السابعة مساء لا ضرورة لأن تفاتحي أختك في الأمر، في استطاعتك أن تتسللي من المنزل دون أن تشعر بك.

فأطرقت المرأة برأسها، وتحرك روديون من مكانه ومضى في سبيله.

تمتاز إليزابيث بطول قامتها واتساع عينيها ودلائل البساطة

والخضوع التي تبدو على وجهها، وعرفها روديون في الحال، رغم أنه لم يقابلها إلا مرة واحدة في منزل أختها التي اتخذت منها خادمة ومديرة لبيتها. على أن إليزابيث كانت تشتغل كذلك بالتطريز وتتجر بالثياب القديمة، وكان روديون يتمنى أن يعرف شيئا عن حركاتها وسكناتها وعن الأوقات التي تبرح فيها منزل أختها، وشاءت الأقدار أن يعلم في ذلك المساء بطريق الصدفة أنها تتسلل من بيت أختها في الساعة السابعة من مساء اليوم التالي، وإذن فستبقى إلينا إيفانوفا وحدها بالمنزل في المساء التالي. وثبت قلبه بين ضلوعه، ويمم شطر منزل وهو يترنح كالثمل. وكان مضطرب الذهن شارد اللب كشخص محكوم عليه بالإعدام شعر كأنه فقد إرادته وحريته، وأن هناك قوة لا يستطيع دفعها تسوقه إلى شيء مقدر مقرر.

نعم، كانت ثمة فرصة ملائمة غير منتظرة، قل أن تسنح مرة أخرى، ولم تكن تلك أول مرة يشعر فيها بأن هناك قوة خفية تسوقه، وتسيطر على أعماله ومصيره، فقد شعر بذلك يوم أن رأى إيلينا إيفانوفا لأول مرة.

كان أحد أصدقائه قد ذكر له اسم هذه المرابية وعنوانها، ونصح له أن يلجأ إليها إذا اضطر أن يرهن بعض أمتعته، فلما زارها لأول مرة وترك عندها خاتم أبيه، قصد لتوه إلى أحد المطاعم وطلب قدحا من الشاي وراح يفكر.

واتفق أن كان يشغل المائدة المجاورة شاب من تلاميذ الجامعة

وضابط في مقتبل العمر، ولشد ما كانت دهشة روديون حين سمع الطالب يذكر للضابط اسم إيلينا إيفانوفا وعنوانها. قال الطالب

- إنها غنية كاليهود، وتستطيع أن تبرز خمسة آلاف روبلا في أية لحظة ولكنها تقبل الرهائن مهما كانت قيمتها.

ومضى الشاب في حديثه عنها فقال:

- إنها لا تدفع أكثر من ربع قيمة الشيء المرهون، ولا تتجاوز عن درهم واحد من أرباحها، وأنها تسوم أختها إليزابيث العذاب رغم أن إليزابيث طويلة القامة كالعمالقة، وتستطيع أن تبطش بأختها إذا أرادت.

وختم الطالب حديثه بقوله:

- وإذا أردت رأيي، قلت لك: إنني لا أعتبر قتل هذا العجوز المرابية جريمة، أنني لا أتردد في قتلها إذا سنحت لي الفرصة، وشعرت بأن أمري لن يفتضح.

فضحك الضابط، أما روديون فقد مرت في جسده رعدة قوية ذلك لأن ما قاله الشاب كان صدى لما يجول بخاطره. قال الشاب بلهجة رزينة:

- دعني ألقي سؤالاً جدياً، هل من خير المجتمع أن عجوزا كهذه لا

تعرف هي نفسها لماذا تعيش؟ أقول هل من خير المجتمع أن تملك هذه العجوز آلاف الجنيهات بينما الشاب البالغ يتضور جوعا ولا يملك الوسائل المادية التي يشق بها طريقه إلى مستقبل شريف كريم؟ كم من الأعمال الإنسانية يمكن الاضطلاع بها وتغذيتها بمال هذه العجوز؟ وكم من العائلات يمكن إنقاذها من الجوع والعوز والخراب والجريمة والبؤس؟ أليس من المصلحة العامة قتل مثل هذه العجوز؟ ألا تفكر في الأعمال الطيبة الكثيرة التي يمكن أن تستخدم فيها أموالها عن جريمة قتل؟ سيخسر العالم حياة واحدة لا قيمة لها، ولكنه يربح عشرات تنقذ من الدمار والموت؟ ما قيمة حياتها، إنها ليست أفضل من البرغوث أو الخنفساء.

فقال الضابط

- الواقع أنها لا تستحق أن تعيش، ولكن الطبيعة...

فقاطعه الشاب:

- يجب ضبط الطبيعة وتقويم أفاعيلها، وإلا فسدت الحياة.

- دعني ألقى عليك سؤالا: هل أفهم مما سمعته منك الآن أن في نيتك قتل هذه العجوز؟ أجب؟ هل في نيتك أن تفعل ذلك؟

- كلا طبعا، إنما أردت فقط أن أظهرك على وجوه النقص في نظام المجتمع، أما الجريمة في ذاتها..

فقال الضابط وهو يضحك:

- ما دمت لا تنوي قتلها، فدعنا نتحدث في أمر آخر.

سمع روديون هذا الحديث واضطرب ظهرا لبطن، لماذا شاءت الأقدار أن يسمع هذه الآراء التي كانت تجول في خاطره منذ رأى إلينا إيفانوفا؟

كانت مصادفة عجيبة قدر لها أن تترك في نفسه تأثيرا مخيفا، وأن تشعره بأن الأقدار تريده على أن يكون أداة لإنقاذ أمر مقرر.

وعاد روديون إلى حجرته وهو زائغ البصر شارد اللب، فتهالك على الأريكة وبقي كذلك ساعة وهو ساكن لا يتحرك وهبط الظلام وهو لا يزال في جلسته، وأخيرا أحس بالبرد وارتجف، وتنفس بارتياح حين شعر بأنه جالس على الأريكة وأنه يستطيع أن يتمدد عليها في الحال.

وما لبث أن غلبه النعاس فنام نوما عميقا خلوا من الأحلام، ودخلت أنستاسيا غرفته في الساعة التاسعة من صباح اليوم، ووجدت صعوبة في إيقاظه، كانت تحمل إليه قدحا من الشاي وقطعة من خبزها، وهتفت باحتقار:

- يا إلهي كيف تستطيع أن تنام حتى هذه الساعة؟

فنهض روديون، وسار في الغرفة قيلا، ولكن أحس بصداع شديد فارتمى على الأريكة، وهتفت أنستاسيا:

- ماذا؟ أتعود إلى الرقاد؟ أنت مريض إذن؟

ولكنه لم يجبها، فسألته:

- ألا تريد قدحا من الشاي؟

فهز كتفيه وحول وجهه نحو الجدار، ترقبه لحظة ثم غمغمت:

- ربما كان مريضا.

وتركته وانصرفت، ثم عادت إليه حول الساعة الثانية وبين يديها صينية ملأى بالحساء، ولكنها وجدته نائما فهزته بعنف وقال وهي تنظر إليه باحتقار:

- لماذا تسرف في النوم هكذا؟

فجلس، وظل ينظر إلى الأرض دون أن يجيب، فسألته:

- هل أنت مريض؟ خير لك أن تخرج، فأنت بحاجة إلى الهواء ألا تريد طعاما؟

- سآكل كل فيما بعد.. اذهبي.

فنظرت إليه بإشفاق، ثم تركت صحفة الحساء على المائدة وانصرفت وأقبل ردويون على الطعام، فأفرغ في جوفه قليلا من الحساء ثم انبطح على الأريكة وراح يفكر ويحلم ودقت الساعة الرابعة فوثب من مكانه وسار على أصابع قدميه حتى وصل إلى الباب ففتحه وأنصت!

كان المنزل هادئا ساكنا، خلوا من دلائل الحياة.

لم يفهم كيف قضى النهار نائما، ولم يعد العدة لإنفاذ الخطة التي اختمرت في ذهنه، فكر فيما يجب عمله، وازداد اضطرابه وترددت أنفاسه بسرعة، وكان يتعين عليه أولا أن يعد العدة لإخفاء الفأس تحت معطفه، فعمد إلى أحد قمصانه فمزقه، وصنع من إحدى شرائحه حلقة ثبتها في بطانة معطفه بحيث يستطيع أن يضع فيها مقبض الفأس (البلطة)، وكانت يداه ترتجفان، ولكنه أتم عمله على أكمل وجه.

كان يعلم أنه ليس من المألوف أن يسير الإنسان في شوارع المدينة وفي يده فأس، فتفتق ذهنه عن هذه الحيلة لإخفاء الفأس تحت معطفه بحيث إذا وضع يده في جيبه أمكنه أن يضغط الفأس فلا تهتز ولا تلتف إليه الأنظار.

ثم رفع قطعة من الحجر تحت الأريكة، وأخرج من تحتها كتلة صغيرة من الخشب وقطعة رقيقة من الحديد كان قد أعدهما عندما نضجت في ذهنه فكرة الجريمة. وكانت قطعة الخشب رقيقة الملمس في حجم علبة التبغ، فشدها إلى قطعة الحديد بخيط متين، ثم حزم الاثنتين في ورقة بيضاء وأحكم حزمها بحيث لا يمكن حلها بسهولة، كان غرضه من ذلك أن تنصرف المرابية العجوز إلى حل الحزمة، فينتهز الفرصة وينفذ خطته وقد وضع قطعة الحديد في الحزمة لكي يكسب كتلة الخشب شيئا من الثقل فتوهم العجوز أنها علبة فضية.

وما كاد يفرغ من الحزمة حتى دقت الساعة السادسة وهتف:

- يا إلهي، إن الوقت يمر بسرعة!

ووثب إلى الباب وأنصت ثم اختطف قبعته وبدأ يهبط السلم بخفة.

كانت تنقصه مرحلة من أهم مراحل الجريمة، وتلك هي سرقة الفأس (البلطة) من المطبخ، وكان قد فكر طويلا في الأداة التي يستخدمها، وخطر له أن يستخدم سكينا، ثم قرر أن البلطة هي أفضل أداء للإجهاز على الضحية.

ومن عجب أنه ما كان يحزم أمره على رأي حتى يستولي عليه الشك والتردد فيرى قراره شاذا مخيفا، غير قابل للتنفيذ، وكان من المحتمل في كل لحظة أن يعدل عن خطته بعد أن يعد كل عدته لإنفاذها.

ولم يهتم كثيرا بمسألة البلطة في المطبخ وقرر أن يسرقها وكان يعلم أن أنستاسيا تبرح المنزل في الأمسية لزيارة صويحباتها، وابتياع ما يحتاج إليه المطبخ، فليس عليه في هذه الحالة إلا أن يتسلل إلى المطبخ، ويلتقط البلطة ويضعها في الحلقة التي صنعها في بطانة معطفه، ومتى تمت الجريمة ردها إلى مكانها في المطبخ، بيد أنه ما كاد يشرع في هبوط السلم حتى تحركت شكوكه، فراح يقول لنفسه:

"هب أن أنستاسيا عادت من الخارج ورابطت في المطبخ قبل أن

أرد البلطة؟ في هذه الحالة يتعين علي أن أحتفظ بأداة الجريمة حتى تنصرف أنستاسيا ولكن فرض أنها لاحظت سرقة البلطة وبلغت الأمر إلى البوليس؟"

وهز كتفيه وطرد هذه الفروض من ذهنه وقرر أن الأمور يجب أن تترك لأوقاتها وأنه والحمد لله من حضور الذهن بحيث يستطيع الخروج من شر المأزق، ولكن هل يسعفه ذهنه حقا في ارتكاب هذه الجريمة، وهل يستطيع أن يفلت من القصاص؟ تحير هذا السؤال في ذهنه مرارا وتكرارا قبل ذلك، وقال لنفسه:

"لماذا تكتشف أكثر الجرائم بسرعة؟ ولماذا يترك المجرمون من الأدلة والآثار ما لا يلبث أن يرشد إليهم؟"

ووجد بعد إعمال الفكر أن افتضاح المجرم يرجع إلى سوء تصرفه أو نقص إجراءاته أكثر مما يرجع إلى استحالة إخفاء الجريمة وطمس معالمها، وأن المجرم يصيبه في اللحظة الخطيرة – لحظة ارتكاب الجريمة – نوع من الذهول وجمود الفكر وتبلد الذهن فيقدم على أعمال ساذجة حمقاء في الوقت الذي يتعين عليه فيه أن يزن كل حركة من حركاته بميزان الحكمة والعقل.

فكر روديون في ذلك واطمأنّ إلى أنه في حصانة من مثل هذا الذهول وجمود الفكر؛ فهو إذن لن يتورط في أخطاء غيره من المجرمين، لا سيما أنه يعتقد فيما بينه وبين نفسه أنه قادم على إنفاذ مشروع إنساني، لا على ارتكاب جريمة ينفر منها الرجل الشريف وليس من شأننا

أن نورد وجهة نظره في الفوارق بين الجريمة المشروعة والجريمة غير المشروعة، وبحسبنا أن نتحدث عن العقبات المادية التي صادفته..

لم يكد روديون يهبط السلم ويقترب من المطبخ حتى رأى ما قوض آماله، وهدم فعلته من أساسها، رأى أنستاسيا واقفة في المطبخ وبين يديها كومة الصحاف والآنية وهي تشتغل بغسلها، أزعجه وجودها – وشعرت به الخادمة، ونظرت إليه متسائلة – ولكنه أشاح بوجهه، ومضى في سبيله دون أن ينطق بكلمة، أخفق مشروعه فهو لا يستطيع أن يفعل شيئا بدون البلطة.

تضعضعت حواسه وشعر من المذلة والهوان بما يشعر به الشخص الذي يتلقى صفعة على خده.

تردد في الخروج من باب المنزل، فوقف بالباب مترددا بين أن يخرج إلى الشارع أو يعود إلى غرفته. غمغم: "وا أسفاه على هذه الفرصة الفريدة".

وحانت منه التفاتة إلى غرفة البواب، ورأى شيئا لفت نظره. رأى (بلطة) ملقاة بين طائفة من كتل الخشب، فنظر حوله في هدوء، واطمئنان إلى عدم وجود أحد.. قصد إلى باب الغرفة، ونادى البواب فلم يسمع جوابا، وثب إلى الداخل واختطف البلطة، ووضعها في الحلقة التي صنعها في معطفه، ثم وثب إلى الخارج ولم يره أحد.

قال لنفسه وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة: "إن للشيطان في هذا

(المشروع) إرادة فوق إرادتي"، وشجعته هذه المصادفة، فمضى في سبيله هادئا ثابت الجنان، ولم يحول عينيه عن الأرض لكيلا يلفت إليه نظر المارة، وفجأة تذكر قبعته؛ فهتف: "يا إلهي قد كان معي بعض النقود منذ يومين، ومع ذلك لم أفكر في ابتياع قبعة"، وراح يلعن نفسه، وحانت منه التفاتة إلى ساعة في أحد الحوانيت فوجد أن الساعة السابعة إلا عشر دقائق، أسرع الخطى وسار إلى منزل إيلينا إيفانوفا من خلال طائفة من الأزقة الضيقة الملتوية، وخطر له وهو يسير أن في الإمكان إعادة تخطيط هذه الناحية من المدينة بحيث يستمتع السكان بنصيبهم من الهم!.. وأدهشه أن يفكر في ذلك تلك اللحظة. ابتسم وقال: "إذن فصحيح ما يقال من أن المحكوم عليه بالإعدام يهتم بكل صغيرة يقع عليها بصره وهو في طريقه إلى المشنقة".

ومرت هذه الخواطر بذهنه بسرعة البرق، غمغم: "ها نحن قد وصلنا"، وعندئذ دقت الساعة نصفا بعد السابعة. فرح جداً حين استطاع دخول المنزل دون أن يفطن إليه أحد عندما كانت هناك مركبة تنقل أخشابا وقد راح الحمالون يتشاحنون في الناحية الأخرى من المركبة فتسلل روديون دون أن يلفت إليه الأنظار.

أخذ يرقى السلم، ومر بالطابق الثاني فوجد بابا مفتوحا وجماعة من البنائين يشتغلون في طلاء جدران الطابق، ولما بلغ الطابق الثالث وجد بابا مفتوحا كذلك، وعليه لوحة تدل على أن الشقة للإيجار.

كان ينصت باهتمام وهو يرقى السلم ولكنه لم يسمع حركة أو

حسا، ولم يصادفه أحد. وانتهى أخيرا إلى شقة العجوز، فوقف وهو لاهث الأنفاس وقلبه يثب بين ضلوعه، قال لنفسه: "أليس من الأفضل أن أعود من حيث جئت؟"، ولكنه لم يجب على هذا السؤال، بل انتظر وأنصت، كان الهدوء تاما في شقة العجوز.

ألقى حوله نظرة أخيرا وتحسس البلطة ثم سأل نفسه: "ترى هل أنا ممتقع اللون؟ إن العجوز شديدة الارتياب بطبيعتها، فمن الأفضل أن أنتظر قليلا حتى تهدأ أعصابي" ولكن الانتظار لم يزده إلا اضطرابا، وخيل إليه أن قلبه يوشك أن يثب من فمه، رفع يده وجذب حبل الجرس، وانتظر قليلا ثم جذب الحبل مرة أخرى.

سمع حفيف ثوب وأيقن أن العجوز تتنصت وراء الباب، أليس من الخير أن يعمل على طمأنتها وإزالة شكوكها؟ راح يسير أمام الباب بخطوات مسموعة، ويتمتم كلاما بصوت مرتفع، ثم جذب الحبل للمرة الثالثة، ولكن ببرود وهدوء.

لم ينس روديون قط هذه اللحظة من لحظات حياته، وعندما فكر فيها فيما بعد لم يستطع أن يفهم كيف بلغ به المكر هذا المبلغ في تلك الظروف التي اضطربت فيها قواه العقلية والجثمانية وبعد بضع ثوان تحرك مزلاج الباب.

الفصل السادس

اقترب روديون من باب الشقة وفتحه قليلاً، ثُم رأى عينين ضيقتين فيهما نظرة شك وارتياب. هُنا فقد روديون حضور ذهنه، وأضاع سلطانه على نفسه وارتكب غلطة خطيرة.. أشفق أن تنزعج العجوز حين تشعر بانفرادها معه، فوضع يده على الباب ليمنعها من غلقه إذا خطر لها أن تفعل ذلك، ولاحظت المرأة ذلك فتعلقت بالباب ونظرت إليه في رعب، وقال لها بصوت حاول أن يرسله هادئاً، فارتجف صوته ولم يطاوعه:

- طاب مساؤك يا إيلينا إيفانوفا، لقد أحضرت لك شيئا، ولكن يحسن أن ندخل إلى حيث يوجد ضوء.

ودخل دون أن تدعوه إلى الدخول، فجمعت المرأة أطراف شجاعتها وسألت:

- ماذا تريد؟ ومن أنت؟

- أنا زبونك القديم، روديون رومانوفتش راسكولينكوف، وقد جئتك برهنية كما وعدتك منذ يومين

وأخرج الحزمة من جيبه. تناولت المرأة الحزمة وهمت أن تفحصها، ثم نظرت بغتة في عيني هذا الزائر الغريب الذي اقتحم عليها غرفتها، وكانت نظرتها حافلة بمعاني الريبة والشك، وخيل إلى روديون أن عينيها قد لمعتا بتهكم، كأنما فهمت كل شيء؛ فأحس بالدم يغيض من وجهه، وأنها إذا استمرت تنظر إليه هكذا لحظة أخرى دون أن تنطق بكلمة، فإنه لا بد أن يندفع إلى الخارج ويلوذ بالفرار، قال لها أخيرا في غضب:

- لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟ هل تقبلين هذه الرهنية أو لا تقبلينها؟ تكلمي إن الوقت ضيق.

لم يكن في نيته أن يلفتها إلى ضيق الوقت، ولكن الكلمات أفلتت من فمه، والظاهر أن لهجته الحادة أزالت شكوكها.

- لماذا التسرع وضيق الصدر يا سيدي؟! ماذا يوجد في هذه العلبة؟

- علبة التبغ العظيمة التي حدثتك عنها منذ يومين.

- ولكن لماذا أنت شاحب اللون؟ ولماذا ترتجف يداك؟ وماذا بك يا سيدي.

فأجابها باختصار:

- حمى، أنت نفسك ترتجفين بغير شك، ويفر لونك إذا قضيت يومين بلا طعام.

نطق بهذه الكلمات بجهد ظاهر، وشعر بقواه تخونه. سألته المرأة مرة أخرى وهي تزن الحزمة في يدها وتنظر إلى وجهه بحدة:

- ماذا بها؟

- علبة تبغ فضية.. افحصيها.

- لا يبدو عليها أنها من الفضة، يا إلهي، ما أمتن هذه العقدة!

وشرعت تعالج العقدة واقتربت من الجدار لتفعل ذلك في الضوء المنبعث من النافذة وهكذا حولت ظهرها إلى روديون فغاب عن بصرها.

وحل روديون أزرار معطفه بأصابع ترتجف، وخلع البلطة من مكانها ولكنه لم يخرجها من تحت المعطف. شعر بأن قواه تخور، وبأن الضعف يشتد به في كل لحظة، وأشفق أن تفلت البلطة من يده، ثم زاغت عيناه وأحس بدوار.

وهنا تحولت إليه إيلينا إيفانوفا وصاحت في غضب:

- ما هذا الذي جئتني به؟

لم يكن ثمة مفر من العمل بأسرع ما يمكن، فاجتذب البلطة من مخبئها ورفعها بين يديه. وهبطت البلطة على رأس المرأة، وأرسلت المرأة صيحة خافتة، وانهارت على الأرض كأنها كومة من الخرق البالية، على

أنها وجدت القوة على أن ترفع يديها على رأسها، وكانت الحزمة لا تزال بين أصابعها.

وتشجع روديون بعد الضربة الأولى، واسترد قوته ورباطة جأشه فأهوى بالبلطة على المرأة مرتين، وانبعث الدم كالنافورة، واهتز جسم المرأة، ثُم سكنت حركتها.

وضع القاتل البلطة على الأرض، وشرع يُفتش جيوب ضحيته ويحرص أشد الحرص على ألا يلوث نفسه بالدم. تذكر أن إيلينا إيفانوفا تضع المفاتيح في جيبها الأيمن، كان مُحتفظا بكل ذكائه وحضور ذهنه، وقوة ذاكرته ولم يشعر بدوار أو خور، ولكن يديه ظلتا ترتجفان بشدة.

وقد تذكر فيما بعد أن كان حكيماً شديد الانتباه، وأنه لم يُلطخ ثيابه بالدماء، عثر على المفاتيح، ووثب إلى الغرفة المجاورة، حيث تضع العجوز نقودها، وكانت غرفة صغيرة في أحد أركانها دولاب زجاجي به طائفة من تماثيل القديسين وفي ركن آخر فراش صغير نظيف عليه غطاء من الحرير، ووقع بصره على دولاب آخر ذي أدراج كثيرة، ومن عجب أنه ما كاد يهيم بمعالجة هذه الأدراج حتى سرت في جسده قشعريرة شديدة.

أتته فكرة، وهي أن يترك كل شيء على حاله وينصرف، ولكن هذا الخاطر لم يُعمر طويلاً، ابتسم حين طرأ له هذا الخاطر، لقد فات أوان الانسحاب، وما لبثت الابتسامة أن تلاشت عن شفتيه، واستولى عليه

مزيج من الذعر والقلق، ماذا لو لم تمت المرأة، ماذا لو عادت إلى رشدها وأفاقت.

ترك المفاتيح والأدراج وعاد أدراجه حيث كانت الجثة، فتناول البلطة وهم أن يهوي بها على ضحيته، ولكنه وجد أنه لا ضرورة لذلك، لم يكن ثمة شك في أن المرأة ماتت.. انحنى فوقها وراح يفحصها عن كثب فرأى الجمجمة مهشمة تهشيما بشعاً، هم بأن يمسها بأصابعه ثم أجفل وتراجع، كانت هناك بحيرة من الدماء.

ورأى روديون فجأة خيطاً بعنق القتيلة يتدلى في صدرها، فاجتذبه بعنف ولكن الخيط لم ينفصم، فعالج إخراجه من الجثة ولكنه احتجز بشيء، وتعذر خروجه، استولى على القاتل غضب شديد، فتناول البلطة ليضرب بها الخيط ضربة قاصمة، ولكنه عاد فانكمش من هذه الوحشية، وبعد عناء استمر بضع دقائق استطاع روديون أن يفصل الخيط بحد البلطة دون أن يشوه الجثة، ولكنه لوث يديه بالدماء، وحدث ما توقعه ووجد كيس نقود مشدوداً إلى الخيط، فوضعه في جيبه دون أن يفحص محتوياته، وانطلق إلى الغرفة الأخرى والبلطة في يده..

وكان وقتها يشعر بالضجر والقلق، فتناول المفاتيح وشرع يعالج الأدراج، وانقضى وقت طويل دون أن يصل إلى غايته، ليس فقط لأن أصابعه ترتجف بشدة، وإنما كذلك لأنه كان مذهولاً شارد اللب، فجعل يضع المفاتيح في غير مواضعها، ويُجرب أضخم المفاتيح حيث يجب

تجربة أصغرها وأدقها، ثُم فطن إلى أن كثرة المفاتيح تدل على أن هناك خزائن ومخابئ أخرى غير تلك الأدراج، وأنه من غير المعقول أن تضع العجوز أموالها في أدراج هي أول ما يقع عليه بصر الزائر.

كان يعلم أن العجائز يضعن كنوزهن تحت أسرتهن، فترك الأدراج وأرسل بصره تحت الفراش فرأى صندوقاً ضخماً منضداً بالمسامير الكبيرة، ووضع أحد المفاتيح في ثقب القفل وحركه ففتح الصندوق ووجد به طائفة من الثياب القديمة تحت غطاء أحمر ألوان كثير التمزيق فبدأ بأن مسح عن يده بذلك الغطاء، ثم غمغم: "يا إلهي.. ماذا أفعل؟ هل أصابني مس من الجنون؟ كيف أفتش عن أموال المرأة بين هذه الخرق البالية؟".

بيد أنه ما كاد يرفع إحدى قطع الثياب حتى رأى قرطاً من الذهب والماس، ثم وقع بصره على طائفة كبيرة من الحُلي بين سلاسل وأساور وخواتم، ومجوهرات كانت كلها بغير شك رهائن عند العجوز، لم يتردد روديون وراح يغترف من هذه الحلي ويملأ جيوب معطفه، وصدريته وسرواله، ثم كف عن الحركة بغتة وجمد الدم في عروقه، ذلك أنه سمع وقع خطوات في الغرفة المجاورة ثم انقطع هذا الصمت، وظن المجرم أنه كان وهماً أو أوشك أن يظن ذلك، حين سمع فجأة آهة خافتة أعقبتها آهة عميقة ثُم ساد السكون مرة أخرى.

جلس روديون القرفصاء على الأرض بجانب الصندوق وانتظر وهو

لا يكاد يجرؤ على التقاط أنفاسه، ثم نهض من مكانه بغتة، واختطف البلطة ووثب إلى الخارج، رأى إليزابيث واقفة في وسط الغرفة وبيدها حزمة ثياب، وقد جمدت في مكانها وراحت تنظر إلى جثة أختها في ذعر وفزع، ألجمها الخوف فلم تستطع الصياح، ولما وقع بصرها على القاتل خارت قواها واهتزت ساقاها واصطكت أسنانها وتقلص وجهها تقلصاً مُخيفاً، وحاولت أن ترفع يدها وأن تصرخ ولكن صمتها احتبس في حلقها وشرعت تتقهقر ببطء وعيناها لا تتحولان عن وجه روديون

تراجعت المرأة المسكينة في سكون وهي لا تزال تنظر إلى القاتل كما ينظر الطفل قبل أن يبكي إلى الشيء الذي يُخيفه، وبلغ من ذعرها أنها لم تفكر في أن تبسط يديها لتحمي وجهها وهو أبسط ما توحي به غريزة الدفاع عن النفس. وأخيرا هبطت البلطة فشطرت الجمجمة وسقطت المرأة ميتة كأنما أصابتها صاعقة.

تناول روديون حزمة من الثياب من يدها دون أن يدري ما هو فاعل ثم ترك الحزمة تسقط وولى الأدبار إلى الغرفة الداخلية. اشتد ذعره بعد هذه الجريمة الثانية التي ارتكبها عن غير قصد، ودون تعمد أو تدبير، وشعر برغبة شديدة في أن يلوذ بالفرار، ولو كان في حالة تسمح له بأن يرى الأشياء على حقيقتها ويشعر بالصعوبات التي تُحيط بمركز الجريمة والعقبات بل والجرائم التي قد يضطر إلى ارتكابها قبل أن يفر من ذلك المنزل ويعود إلى بيته، إذن لآثر ألف مرة أن يكف عن النضال والمقاومة، وأن يذهب تواً إلى إدارة الشرطة فيسلم نفسه ويكفر عما

جنت يداه، ولا يكون استسلامه عندئذ جُبناً ونذالة وعجزاً عن المُضي في النضال، وإنما يكون تخلصاً من هول ما اقترف وإفلاتا من الرعب الذي بدأ يقبض قلبه بمخالب من فولاذ.

أخذ رعبه يشتد مع كل دقيقة، ولم تعد هناك أية قوة تستطيع أن تحمله على العودة إلى الصندوق والاغتراف من كنوز العجوز، شرد لبه، وأخذ يفكر في أشياء تافهة لا تمت إلى موقفه الخطير بصلة، كأنه نسي مركزه ونسي ما يجب عليه عمله، وحانت منه التفاتة إلى المطبخ، فرأى آنية زجاجية ملأى بالماء، فخطر له عندئذ أن يغسل يديه، ويزيل ما علق بالبلطة من الدماء، ولما فرغ من ذلك جفف يديه والبلطة بحوزته وجدها بالمطبخ، ثم اقترب من النافذة وراح يفحص نصل البلطة، لم يكن هناك أثر للدماء، ولم يرد على معطفه وسرواله ما يثير الريبة، ولكنه وجد على حذائه بعض البقع فأزالها. ومع ذلك فإنه لم يطمئن ودخل في روعه أن هناك بقعاً لم يتبينها لضآلة الضوء.

وقف في وسط الغرفة وهو فريسة المخاوف والشكوك والأفكار السوداء، خيل إليه أنه يوشك أن يجن، وأنه أصبح في حالة لا يستطيع معها أن يتخذ قراراً يضمن له السلامة، فغمغم:

- يا إلهي! يجب أن أذهب، يجب أن أذهب في الحال.

ووثب إلى الخارج وهناك استولى عليه ذعر لم يشعر بمثله طيلة حياته، وجد باب الشقة مفتوحاً على مصراعيه والدليل على ذلك أن

إليزابيث استطاعت الدخول دون أن تقرع الباب أو تدق الجرس، يا إلهي كيف غاب عنه ذلك.

وأسرع إلى الباب دون أن يعي، وأغلقه بالمزلاج ثم تراجع إلى الوراء حتى التصق بالجدار، غمغم:

- كلا.. كلا.. ذلك ما لا يجب أن أفعله.. يجب أن أذهب.. يجب أن أذهب.

ورفع المزلاج وفتح الباب وأنصت، سمع في أسفل المنزل ضجيج رجلين يتشاتمان ويتبادلان السباب؛ فتساءل: ترى من الرجلان؟. وانتظر حتى هدأت الضجة وانصرف المتشاجران، هم بهبوط السلم، ولكنه سمع في تلك اللحظة صوت باب يفتح، ووقع أقدام شخص يهبط السلم، وهو يترنم بإحدى الأناشيد، فغمغم: "ما معنى كل هذا؟"، وأغلق الباب وانتظر حتى ساد السكون، وفي ذات اللحظة التي حاول فيها أن يفتح الباب، سمع فجأة وقع أقدام تصعد السلم، واستمر هذا الصوت واقترب، وتخطى الطابق الثالث، وعندئذ أيقن روديون أن هناك شخصاً يقصد إلى الطابق الرابع، أي شقة العجوز.

كان القادم يصعد ببطء ويلهث بصوت مسموع؛ فأدرك روديون أنه لا بد شخص كبير الجسم مُترهل البدن. ووصل القادم إلى الطابق الرابع، وهنا أحس روديون بالرعب يشل حركته، شعر بما يشعر به ضحية الكابوس، حين رأى فيما يرى النائم، أن أعداءه يُطاردونه ويوشكون على

اللحاق به، والإجهاز عليه، وهو مُتسمر في مكانه، لا يستطيع الحراك ولا الفرار.

وتخلص روديون من جموده وذهوله، ووثب إلى الباب وأغلقه بالمزلاج دون أن يحدث صوتا ينم عن وجوده، ولما تم له ذلك وقف بجانب الباب وحبس وأنصت. واقترب القادم المجهول من الباب وتريث وهو يلهث بصوت مسموع، فأمسك روديون بالبلطة ووقف على استعداد، كان كل ما مر به ويمر أشبه بحلم خبيث..

واجتذب الزائر حبل الجرس، وخيل إليه أنه سمع حركة في الداخل فأنصت بانتباه، وبقى كذلك بضع ثوان، ثُم جذب حبل الجرس مرة أخرى، ولما فرغ صبره، راح يحرك مقبض الباب بكل قوته.

ولاحظ روديون – الذي يملأ قلبه الرعب – أن مزلاج الباب يتواثب في مكانه، وراح يتوقع في كل لحظة أن يثبت المزلاج وثبة يفتح الباب على أثرها.

خطر له أن يضع يده على المزلاج ليمنعه من الحركة، ولكنه عاد فأشفق أن يشعر الرجل بذلك. مسح رأسه، وشعر بدوار، قال لنفسه: "يا إلهي أفضح نفسي".

ولكنه سرعان ما تشجع وسيطر على مشاعره وأفكاره.

صاح الزائر في الخارج:

- ماذا أصاب المرأتين، هل غلبهما النعاس أو قتلهما قاتل؟ قبحهما الله.

وتريث لحظة أخرى ثم عاد يصيح:

- يا إيلينا إيفانوفا، أيتها العجوز الشمطاء، أنت يا إليزابيث إيفانوفا، يا ذات الجمال الساحر، افتحا الباب، يا للشيطان، هل نامت الشقيقتان؟

وجذب حبل الجرس مراراً وبكل قوة.

لم يكن ثمة شك في أن هذا الزائر يعرف المرأتين حق المعرفة وأنه زارهما قبل ذلك، وفي تلك اللحظة سمع روديون وقع خطوات أخرى خفية تصعد السلم بسرعة، كان هناك شخص آخر في طريقه إلى الطابق الرابع، واقترب الزائر الجديد وسمع روديون صوته وهو يسأل:

- هل يمكن أن يكون المنزل خاليا من المرأتين؟

ولا شك أنه تبين وجه الزائر الأول في تلك اللحظة، لأنه استطرد على الفور:

- طاب مساؤك يا كوخ.

قال روديون لنفسه: "إن صوته يدل على أنه في مُقتبل العمر".

أجاب المدعو كوخ:

- هل يعلم غير الشيطان أين ذهبت المرأتان، لقد كدت أن أهشم الباب، ولكن كيف أتفق أنك تعرفني؟

- ما أعجب هذا السؤال؟ ألا تذكر أنني لعبت معك البلياردو في مطعم كريستال بالاس منذ يومين؟

- آه.

- وإذن المرأتان ليستا في المنزل؟ هذا عجيب، بل ومضحك، ترى أين ذهبت إلينا إيفانوفا؟ لقد كنت أريد التحدث إليها.

- وأنا كذلك أريد التحدث إليها.

- وما العمل الآن؟ أظن أنه لم يبق أمامنا إلا أن نعود من حيث أتينا.

- لقد كنت أريد أن أقترض منها بعض النقود.

- طبعاً لم يبق لدينا إلا أن نعود من حيث أتينا، ولكن لماذا ضربت لي موعداً لمقابلتها؟ لقد طلبت إلي بنفسها أن أزورها في هذه الساعة وأنا أقيم في منزل بعيد عن هذا الحي، وليس في استطاعتي أن أعود الليلة لمقابلتها، فترى أين ذهبت هذه الحمقاء؟ إنني أعلم عنها أنها لا تبرح منزلها قط، دعنا نسأل البواب.

- ولماذا؟

- لعله يعلم أين ذهبت ومتى تعود، ولماذا تسأل؟ أنا واثق أنها لا تبرح المنزل قط.

وحرك مقبض الباب بقوة واستطرد:

- لتأخذها الشياطين، كل ما نستطيعه الآن هو أن نرحل

فهتف الشاب فجأة:

- صبراً.. ألا تلاحظ أن الباب قد تحرك في يدك عندما هززته؟

- وماذا في ذلك، ذلك يدل على أنه ليس مُغلقا بالمفتاح، إنه موصد بالمزلاج فحسب.. ألا تسمع اهتزاز المزلاج؟

- وماذا في ذلك أيضا؟

- ألا تفهم؟ ذلك يدل على أن إحدى المرأتين على الأقل موجودة في الداخل، ولو أنهما خرجتا معاً، لوجدنا الباب مغلقا بالمفتاح من الخارج، وليس موصداً بالمزلاج عن الداخل.

- أصغ.. ألا تسمع ضجيج المزلاج؟

- إن غلق الباب بالمزلاج معناه وجود إنسان في الدخل فهل فهمت؟ وإذن فإنهما في داخل الشقة، ولكنهما لا تفتحان الباب لسبب ما.

فهتف كوخ في دهشة:

- هذا كلام معقول،

وعاد يهز الباب، فصاح الشاب:

- صبراً يا كوخ.. لا تحرك الباب بمثل هذه الشدة، يوجد أمر يلفت النظر في كل هذا، إنك قرعت الجرس، وهززت الباب بكل قوتك، والمرأتان في الداخل ولكنهما لا تفتحان، وإذن لا بد أنهما في حالة إغماء أو – أو ماذا؟

- في اعتقادك أن خير ما نفعله، هو أن ندعو البواب، ليستطلع بنفسه ما هنالك.

- هذا رأي لا بأس به.

وتحركا معاً، وشرعا في هبوط السلم، قال الشاب:

- صبراً يا كوخ، ابق هنا ريثما أدعو البواب.

- ولماذا أبقى؟

- من يعلم ماذا يمكن أن يحدث حين...

- حسناً... حسناً.

- وبعد فإنني قد أضطر للذهاب إلى مكتب البوليس فإن في هذه الظواهر شذوذاً رائعاً يلفت النظر..

وهبط الشاب السلم مُسرعا وبقي كوخ وحده؛ فقرع الباب بلطف، وأخذ يعبث بمقبضه ليستوثق من أنه موصد بالمزلاج فقط. وشرع يسير أمام الباب جيئة وذهاباً، ثم نظر من ثقب القفل، ولكن المفتاح كان موضوعاً من الداخل بطريقة تجعله يصدم البصر، فلم يتمكن كوخ من رؤية شيء.

أما روديون فقد ظل واقفاً بالقرب من الباب والبلطة بين يديه، كان وقتئذ نهبا للغضب والجنون، وقد تأهب لمهاجمة الرجلين حين يدخلان، وكان وهو يصغي إلى حديثهما ومناقشتهما يشعر برغبة أكيدة في وضع حد للموقف بالخروج إليهما، وأراد مراراً أن يوجه إليهما أقبح أنواع الشتائم والسب.

ومر الوقت وبدأ كوخ يشعر بالضجر، تمتم: "ليأخذهما الشيطان"

ولما تعب من كثرة الصبر والانتظار انطلق في البحث عن الشاب وسمع روديون وقع خطواته الثقيلة وهو يهبط السلم ويبتعد، فتنفس الصعداء هاتفاً: "يا إلهي.. ماذا يجب أن أصنع الآن؟"

وتريث حتى استوثق من أن كوخ قد برح المنزل، ثم رفع المزلاج وأخذ يفتح الباب شيئا فشيئاً. وجد السكون شاملاً فاطمأن، وأغلق الباب وراءه وشرع يهبط السلم، بيد أنه ما كاد يجتاز بضع درجات حتى سمع

ضجة عظيمة في أحد الطوابق السفلى.. يا إلهي.. أين يذهب؟

كان الاختباء مُستحيلاً، فصعد درج السلم من جديد وطرق أذني صوت رجل يصرخ:

- قف قبحك الله، قف يا ديمتري.. ديمتري!

وكان الرجل يصيح بهذا وهو يهبط السلم مُسرعاً، وما لبث أن تلاشى صدى صوته ووقع قدميه وساد السكون مرة أخرى. على أن روديون ما كاد يتخلص من هذا الخطر حتى أحاق به خطر جديد؛ سمع وقع خطوات كثيرة تصعد السلم، وكان القادمون ثلاثة أو أربعة أشخاص على الأقل، وكانوا يتحدثوا بأصوات مرتفعة، فتبين روديون بينها صوت الشاب الذي ترك كوخ وانطلق في البحث عن البواب. غمغم روديون: ها هم قد أقبلوا، فضاع أمله في النجاة، فراح يهبط السلم بجرأة ويقول:

"ليكن ما يكون، إذا ارتابوا في وألقوا القبض علي فقد انتهى كل شيء، وإذا تركوني أمر فالنتيجة واحدة لأنهم سوف يذكرون أنهم صادفوني على السلم".

واستمر يهبط والقوم يصعدون، ولم يبق إلا القليل ويلتقي بهم، وعندئذ حانت منه التفاتة إلى أحد الأبواب وشعر بأنه نجا، وقع بصره على باب شقة من الطابق الثاني، هي التي كان البناءون يشتغلون فيها، وكان الباب مفتوحاً، فأطل منه روديون، وشاءت المصادفات السعيدة ألا يجد أحداً.

أدرك أن البنائين هم الذين أحدثوا الضجة الأولى التي أدخلت الذعر إلى قلبه، وانصرفوا بعد ذلك في أثر بعضهم، وكانت الجدران لا تزال مُبللة بالطلاء وأدوات البنائين مُبعثرة هنا وهناك.. تسلل روديون بسرعة البرق إلى تلك الشقة الخالية وكمن في أحد الأركان، وانتظر حتى صعد الرجال في طريقهم إلى الطابق الرابع وهُم يتحدثون بأصوات مرتفعة ثم مشى على أطراف قدميه ومرق من الشقة كالسهم، ولم يصادفه أحد على السلم أو الباب الخارجي، فسار في الشوارع بخطوات واسعة وانحرف إلى اليسار في أول زقاق صادفه.

شعر بأن الرجال لا بد قد وصلوا إلى شقة العجوز ووقفا حائرين أمام بابها المفتوح قال لنفسه: "ومتى وقعت أبصارهم على الجثتين أدركوا في الحال أن القاتل لا بد قد توارى عن أبصارهم وهم يصعدون السلم ربما خطر ببالهم أنه اختفى بالشقة الخالية بالطابق الثاني، ولكنه رغم ذلك لم يجسر على الإسراع.

قال لنفسه: "لنفترض أنني تسللت إلى أحد الأبواب التي تصادفني ومكثت هنا بضع دقائق تضليلاً لأولئك الأوغاد إذا خطر لهم أن يطاردوني، ولكن لا، هذه فكرة خرقاء، ألا يجوز أن ألقى بالبلطة في مكان ما؟ ألا يجوز أن أستأجر مركبة؟.. كلا.. كلا."

وأخيراً دلف لزقاق آخر يسبح في الظلام، فتريث هناك وهو أقرب إلى الأموات منه إلى الأحياء، وشعر بأنه آمن في هذا الزقاق من نظرات الفضوليين وشبهات المارة في الطرق المزدحمة، ولكنه أصيب من

المفاجآت الأخيرة بضعف شديد، خارت قواه وعجزت ساقاه عن حمله، وراحت حبات العرق تتدحرج على جبهته وخديه، ولما هدأت أعصابه قليلاً استأنف السير وهو ينتزع قدميه من الأرض انتزاعاً، ووصل أخيراً إلى البيت، وعندئذ فقد برزت له المُعضلة التي أغفلها حتى تلك اللحظة، ولم تخطر له ببال، كان يتعين عليه أن يرد البلطة إلى المكان الذي أخذها منه، وأن يفعل ذلك دون أن يُلفت إليه الأنظار.

ولو كان حاضر الذهن لأدرك أن أفضل وسيلة للتخلص من البلطة هي إلقاؤها في فناء أي منزل آخر، ومهما يكن من أمر فإنه كان حسن الحظ لأنه وجد غرفة البواب خالية كما تركها.

وقد فعل روديون كل القدرة على التفكير والتدبير، فدخل غرفة البواب توا، ولو كان البواب هناك وسأله: "ماذا تريد؟"؛ لقدم إليه البلطة بكل بساطة، ولكن البواب لم يكن هناك فألقى روديون بالبلطة في المكان الذي أخذها منه، ثُم صعد السلم دون أن يُصادف أحداً، ودخل غرفته وألقى بنفسه على الأريكة.

لم ينم، ولكنه استغرق فيما يُشبه الإغماء، ولو دخل عليه إنسان وهو في تلك الحالة لصرخ واعترف بجريمته، وكان رأسه يسبح، وأفكاره المُضطربة تتلاقى وتتشعب ولا يستطيع أن يجمع شتاتها.

القسم الثاني

الأم والابن

الفصل الأول

ظل روديون في مرقده وقتا طويلا وفتح عينيه مرارا، ولاحظ أن الليل يسير بسرعة، ولم يخطر بباله أن ينهض. وانبثق الفجر أخيرا، فاعتدل جالسا وراح يجمع شتات أفكاره ويستذكر ما مر به، وخُيل إليه لأول وهلة أنه جُن، ثُم مّرت بجسده رعدة قوية، لا من تأثير الفزع والرعب وإنما من فعل الحُمى التي أصابته وهو نائم، ارتعد حتى اصطكت أسنانه، وتلاطمت ركبتاه، ثُم قام إلى الباب وفتحه وأرهف أذنيه.

كان المنزل يسبح في الظلام والسكون، وأدهشه أنه لم يُغلق الباب بالمفتاح أو المزلاج عندما عاد إلى غرفته في المساء، وأدهشه أكثر أنه لم يرقد بثيابه كلها فحسب، بل رقد كذلك وقبعته على رأسه.

وقف أمام النافذة وراح يفحص ملابسه عن كثب، ويُفتش عن بقع الدم، ثم لم يطمئن إلى عينيه، فخلع ثيابه وهو لا يزال يرتعد، وجعل يفحصها باهتمام وعناية وعثر أخيراً ببقع من الدم قد تجمدت على أطراف سرواله فمزق أطراف السروال بسكين، وفجأة تذكر أن كيس النقود والحلي الذي أخذه من صندوق العجوز لا تزال في جيوبه، ولم يكن قد خطر بباله أن يُخفيها، وهم بفحص ثيابه ويُنظفها. إن جيوبه شيئاً ذا قيمة وخطورة.

"يا إلهي.. كيف غفل عن الغنيمة التي ارتكبت في سبيلها جريمتي قتل"

أفرغ الحلي على المائدة، وقلب جيوبه ليستوثق من خلوها، ثُم قصد إلى ركن في غُرفته حيث كان الورق الذي يُغطي الجدار مُمزقاً ومتهدلاً، فدس المسروقات في جحر في الجدار تحت الورق، وقال لنفسه بسرور: "ها أنذا.. قد أخفيتها". ونظر إلى حيث خبأ المسروقات فرأى الجدار مُتضخماً، والورق بارزاً، فارتجف ذُعراً، وغمغم في يأس:

"يا الله، ما الذي أصابني!! هكذا تُخبأ الأشياء التي لا يجب أن تقع عليها عين إنسان"

والواقع، إنه لم يكن قد فكر في أن سرقة شيء آخر غير النقود، فلم يحسب حساب مخبأ لأمثال هذه المجوهرات.

غاص في الأريكة وهو منهك القوى، وأصابته نوبة ارتعاش، فألقى المعطف على جسده، ونام نوم المحموم، بيد أنه ما لبث أن أفاق بعد خمس دقائق واختطف المعطف بحدة وهو يقول:

- يا إلهي.. كيف أنام ولا أفعل شيئاً، نعم إنني لم أفعل شيئاً، فها هي الحلقة لا تزال في مكانها.

ومزق الحلقة التي كان قد صنعها في المعطف لتثبيت البلطة، ونهض واقفا بعناء، وجعل ينظر حوله ليتأكد من أنه لم ينس شيئاً.. كان يشعر شعوراً قاسياً بأن كل شيء يتآمر به، حتى ذاكرته، وحتى قوى تفكيره.

قال لنفسه: "ترى هل بدأ العقاب؟" وحانت منه التفاتة، فرأى القطع المُلوثة بالدماء التي مزقها من سرواله ملقاة في وسط الغرفة تحت بصر أول قادم، فصاح في حيرة: "يا إلهي ماذا دهاني؟" واحتل ذهنه خاطر عجيب فكر في أن ثيابه ربما كانت كلها ملوثة بالدماء، ولكنه لا يراها لأن حواسه قد تجمدت، ولأنه فقد قوة الملاحظة والتمييز. ووقع بصره على حذائه فرأى آثار الدماء ظاهرة واضحة، فهتف: "ماذا أصنع الآن؟! المعطف والثوب والحذاء كلها ملوثة بالدماء فما العمل؟!"

وجمع كل هذه الأمتعة وحملها بين يديه ووقف في وسط الغرفة مُفكراً: هل يحرقها في الموقد؟ ولكنه لا يملك عود ثقاب؛ من الخير إذن أن يتخلص منها بإلقائها في مكان ما.. نعم.. نعم.. يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن.

وجلس على الأريكة وراح يُفكر، ثم ما لبث أن تمدد وعاوده الارتجاف، فتوارى تحت المعطف، ونام مرة أخرى، وشعر كما يشعر المحموم بأنه قضى في مرقده وقتاً طويلاً، وحاول مرارا أن ينهض ليتخلص من حزمة الثياب، ولكنه كان في كل مرة يحس كأنه مشدود إلى الأريكة، وكأن يداً تضغط جسمه وتمنعه من النهوض، وأخيراً سمع بالباب طرقاً شديداً فاستيقظ، صاحت به أنستاسيا:

- ألا تريد أن تفتح الباب؟ انقضى الليل والنهار في حظيرتك وأنت كالكلب.. الساعة الآن الحادية عشرة.

وسمع روديون صوت رجل يقول مُحدثاً أنستاسيا:

- ربما لم يكن في غرفته.

وعرف روديون صوت البواب، فأفاق من ذهوله وتوترت أعصابه: ترى ماذا يُريد البواب؟.. وأرهف أذنيه، ووثب قلبه بين جنبيه. قالت أنستاسيا:

- إذا لم يكن في غرفته فمن ذا الذي أوصد الباب من الداخل إذن؟

ثم صاحت:

- ألا تريد أن تفتح الباب؟

غمغم روديون: "لقد افتضحت وانتهى الأمر، لا بد أن جريمتي قد اكتشفت"، ونهض إلى الباب ففتحه، ثم عاد واستلقى على الأريكة.

ودخلت أنستاسيا ورمقته بنظرة غريبة، بينما هو كان ينظر إلى البواب بعينيه في يأس واستسلام، قال البواب:

- لقد جاءك إخطار من مكتب البوليس يا سيدي.

- مكتب البوليس؟ لماذا؟

- لا أعلم، إنهم يطلبونك في الحال.

وقدم إليه الإخطار فتناوله روديون ولكنه لم يقرأه، وظل ممسكا به في يده، ثم انقلب على وسادته، فصاحت أنستاسيا:

- لا تذهب إذا كُنت مريضاً، ولكن ما هذا الذي بيدك؟

فنظر روديون إلى يده ووجد بها الحذاء والثوب والقطع الملوثة بالدماء التي مزقها من سرواله. لا بد وأنه نام وهذه الحزمة في يده.

وقالت أنستاسيا وهي تغرق في الضحك:

- ما أعجب أن تحتضن هذه الجزمة وأنت نائم كأنها كنز ثمين.

فأخفى روديون الجزمة تحت المعطف وأجاب: .

- كلا، سأذهب، وسأذهب في الحال.

ونهض واقفا، فانصرفت الخادمة في أثر البواب، وتريث روديون قليلاً، ثُم وثب نحو النافذة ونظر إلى حذائه، كانت على الحذاء آثار دماء ولكنها غير واضحة. ثم ألقى ببصره إلى الإخطار الذي جاء به البواب، إخطار كان عادياً يوجب الذهاب إلى مكتب البوليس في منتصف الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم التالي، وصاح:

- ولماذا يطلبونني اليوم دون سائر الأيام؟ كم أتمنى أن ينتهي كل شيء بأسرع ما يمكن.

وهمّ بأن يجثو على ركبتيه ويبتهل إلى الله، ولكنه لم يفعل بل انفجر باكيا وقال:

- وماذا يفيدني الابتهال؟! يجب أن أعتمد على نفسي فقط.

وارتدى ثيابه بسرعة ورمق الحذاء شزراً، هل يجب أن ينتعله؟ كلا يجب أن يتخلص منه أو يخفيه. ولكنه عاد فتذكر أنه لا يملك حذاءً سواه، فانتعله وهو كاره.

ووقف روديون بباب مكتب البوليس واستند إلى الجدار ليلتقط أنفاسه ويسيطر على اضطرابه، وأخذ يفكر، هل يعترف إذا سئل؟

نعم، من الأفضل أن يعترف، إن كل شيء ينم عن الجريمة، فلا فائدة من الإنكار، يجب أن يجثوا على ركبتيه ويعترف.

ودخل إلى مكتب البوليس وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى، فوجد المكان غاصا بالناس، انتظر وانتظر حتى فرغ صبره، ثم تشجع وقدم الإخطار إلى أحد الموظفين فتناوله وقرأه ثم رمقه بنظرة غريبة وسأله:

- هل أنت طالب؟

- نعم، أو على الأصح إنني كنت طالبا.

فقلب الموظف شفته ورد إليه الإخطار وهو يقول:

- قدم نفسك إلى كبير الكتاب في الغرفة المجاورة.

فقصد روديون إلى الغرفة المجاورة ووجد نفسه أمام شاب في نحو الثانية والعشرين من عمره، زينت أصابعه بخواتم كثيرة تتألق ماساتها كلما حول يده بين الأوراق المُكدسة أمامه، ورأى بالقرب من هذا الشاب سيدة في مقتبل العمر ترتدي ثوباً هو آخر كلمة بالأناقة، وقال الشاب بعد أن فحص بعض الأوراق:

- في استطاعتك أن تجلسي يا سيدتي.

فأجابت المرأة بالألمانية وهي تجلس:

- شكرا لك يا سيدي

بيد أنها ما كادت تطمئن في مقعدها حتى دخل ضابط طويل القامة عريض الكتفين فوثبت السيدة واقفة باحترام، غير أن الضابط لم يعبأ بها وجلس على مقعد أمام الكاتب، ونظر إلى روديون من ركن عينه باحتقار، ولكن روديون صمد أمام هذه النظرة وقابلها بثبات. وكأنما أدهش الضابط أن نظرته لم تصعق هذا الشاب الهزيل المهلهل الثياب فصاح به فجأة:

- ماذا تفعل هنا يا هذا؟

فأجاب روديون بلسان متلعثم:

- جئت إلى هنا لأنني دعيت للحضور.

وهنا قدم الكاتب الإخطار إلى الضابط فتناوله هذا وقرأه ثم قال مزمجرا:

- متى تسلمت هذا الإخطار يا سيدي؟ لقد طلبنا إليك الحضور في منتصف الساعة العاشرة، والآن قد انتصف النهار أو كاد.

فأجاب روديون بصوت مرتفع وقد أغضبته لهجة الضابط:

- إنني تسلمته منذ ربع ساعة، وبحسبك أن تعلم أنني مريض بالحمى.

فصاح به الضابط:

- لماذا لا تدفع ديونك يا سيدي؟

فغمغم روديون: "ديوني؟" وانبسطت أسارير وجهه. فصرخ الضابط:

- نعم ديونك، ألا يُخجلك أن تأكل أموال المرأة التي سكنت منزلها وأشبعتك بطعامها؟ ألا يُخجلك أن...

وقبل أن يتم عبارته دخل ضابط آخر تبدو على وجهه علامات اللطف والدعة فقاطع زميله بقوله:

- لماذا تصرخ هكذا يا إيليا بتروكوف؟ إن صوتك يزعج المارة في الشوارع.

فأجاب بتروكوف

- انظر إلى هذا المخلوق العجيب يا توميتش، إنه يزعم أنه من طلاب العلم، ولكنه مع ذلك لا يتورع عن الاحتيال على صاحبة المنزل الذي يقيم به، فهو لا يريد أن يدفع ديونه لها، ولا يُريد الجلاء عن منزلها! أهكذا يفعل طلاب العلم؟ هل هذا طالب علم بحق السماء؟!

ورمق روديون بنظرة احتقار فأجاب توميتش بلطف:

- إن الفقر ليس جريمة إيليا بتروكوف.

وتشجع روديون وقال:

- أرجو المعذرة يا سيدي، إنني كنت طالب علم، ولم أواصل الدراسة لفقري ومرضي، وكذلك لم أستطع سداد ديوني لصاحبة المنزل، وقد تقطعت بي الأسباب وقد...

فقاطعه بتروكوف:

- هذه الأنباء المحزنة لا تهمنا يا سيدي، وليس لدينا متسع من الوقت لسماع ترجمة حياتك.. يجب الآن أن تتعهد كتابة بسداد ديونك، وإلا كان لنا معك شأن آخر.

فقال توميتش:

- لا تكن هكذا يا بتروكوف.

ونظر الكاتب إلى روديون وقال له:

- اكتب يا سيدي.

فهتف روديون بخشونة:

- وماذا أكتب؟

- سأملي عليك.

وأملى عليه صيغة تعهد بألا يبرح سان بطرسبرج قبل أن يقوم بسداد دينه، ولاحظ الكاتب أن القلم يرتجف في يد روديون، فنظر إلى وجهه وقال:

- إنك لا تستطيع الكتابة، فماذا بك؟ هل أنت مريض؟

- نعم، إنني أشعر بدوار، ماذا يجب أن أكتب أيضاً.

- ضع اسمك في ذيل هذا التعهد.

فذيل روديون الورقة بإمضائه، وأتى بحركة لكي ينهض وينصرف ولكنه لم ينهض بل اعتمد رأسه بين كتفه، وخطر له في تلك اللحظة خاطر عجب! هو أن يذهب إلى توميتش ويعترف له بكل شيء، وضع بذلك حداً للزوبعة التي تعصف في جمجمته وتوشك أن تذهب بصوابه.

ونهض واقفاً لينفذ هذا الخاطر، ثُم تردد، إذ هتف به هاتف يقول:

- تريث وفكر في الأمر.

وفي هذه اللحظة كان توميتش يتحدث إلى بتروكوف بحدة، فسمع روديون حديثه وجمد في مكانه، إذ كان يقول:

- لا أظن ذلك، فهناك متناقضات كثيرة تقصي عنهما كل شبهة. والواقع، إذا كانا قد قتلا العجوز وأختها حقا فلماذا ذهبا إلى البوليس وطلبا إليه أن يرافقهما إلى شقة العجوز! كان الأحرى بهما أن يلوذا بالفرار بدلا من أن يقفا هذا الموقف الحرج.

فقال بتروكوف:

- كلا، كلا، إن كوخ وزميله هما القاتلان بلا شك، لقد زعما أنهما وجدا باب الشقة مغلقا ولما رافقهما البواب بعد بضع دقائق ظهر أن الباب مفتوح.

فأجاب توميتش:

- إن الرجلين لم يكذبا، ومن المؤكد أن القاتل كان موجودا بالشقة فلما شعر بقدومها أغلق الباب من الداخل وانتظر حتى انصرف كوخ، ثم تسلل إلى الخارج.

فقال الكاتب:

- هذا تفسير معقول.

فصاح بتروكوف:

- كلا، كلا، أنا واثق أن كوخ وزميله هما القاتلان.

وساد الصمت لحظة فتناول روديون قبعته، سار نحو الباب، ولكنه لم يصل إليه.

ولما عاد إلى رشده وجد نفسه جالسا في مقعد والكاتب يبلل جبهته بالماء، ورأى توماتش ينظر إليه بإمعان فنهض واقفا. وسأله الضابط بحدة:

- ماذا دهاك؟ هل أنت مريض؟

فقال الكاتب:

- لقد كان القلم يرتجف في يده وهو يذيل التعهد بإمضائه.

وسأل بتروكوف ببطء:

- هل أنت مريض منذ وقت طويل؟

فغمغم روديون:

- منذ أمس...!

- وهل غادرت غرفتك أمس؟

- نعم.

- وأنت مريض؟

- نعم.

- ومتى غادرتها؟

- في الساعة الثامنة مساء.

- وإلى أين ذهبت؟

- انطلقت في الشوارع.

وكان روديون يجيب بصوت متقطع، دون أن يجرؤ على النظر إلى وجه بتروكوف، فقال توميتش:

- إنه لا يكاد يقوى على الوقوف، فهل تريد أن تلقي عليه أسئلة أخرى؟

فأجاب بتروكوف بخشونة:

- كلا.

وهم توميش بأن يقول شيئا، ثم التقت عيناه بعين الكاتب وساد

الصمت فجأة وقصد روديون إلى الباب، وما كاد يبتعد قليلا حتى امتلأت أذناه بأصوات الضابطين والكاتب، ولكنه لم يتبين كلمة واحدة من الجدل الذي شجر بينهما، فغمغم: "ويل للأوغاد، إنهم يرتابون في أمري".. وتصبب العرق على جبهته.

الفصل الثاني

كل شيء في موضعه، هكذا وجد روديون غرفته بعد أن عاد إليها مما يدل على أن أحداً لم يدخلها أثناء غيابه، ولكن يا إلهي كيف وجد الجرأة على أن يترك المسروقات حيث وضعها؟!

أخرج الحلي من مكانها ودسها في جيوبه دون أن يفكر في فحصها ومعرفة قيمتها، وانصرف من الغرفة مسرعا.. كان يعتقد أنه من المحتمل في أية لحظة أن تصدر الأوامر بتفتيشه واعتقاله، فمن الحكمة إذن أن يتخلص من هذه المسروقات في الحال ويخفي آثار الجريمة، ومن الأفضل أن يفعل ذلك وهو لا يزال يستمتع بقواه الجسمانية والعقلية، ولكن أين يخفي المسروقات؟ هل يلقي بها في النهر؟ نعم يجب أن يفعل ذلك.

بيد أنه وجد أن ذلك ليس من الأمور الهينة، فقد كانت ضفة النهر تغص بقوارب الصيد ثم المارة وكانوا كثيرين، يضاف إلى ذلك أن بعض الحلي كان موضوعا في علب صغيرة، ومن يدري، فربما طفت هذه العلب ولم تغص في الماء.. كلا، كلا، يجب أن يبحث عن طريقة أخرى.

ومرت به ساعة أو بعض ساعة وهو هائم على وجهه لا يستطيع أن يحزم رأيه على أمر، وأخيرا خطر له أن يلجأ إلى الغابة فيضع المسروقات

في حفرة ويغطيها ببعض الأغصان.

ولكن قدر له ألا ينفذ هذه الفكرة أيضا، لأنه ما كاد ينطلق من المدينة في الطريق نحو الغابة حتى صادف جدارا قديما متهدما، فجلس بجانب، وانتظر بضع دقائق حتى شعر بأن المكان مقفر وأن أحدا لا يراه، ثم رفع حجرا من الأرض وأخفى الحلي ورد الحجر إلى موضعه وأحاطه بقليل من التراب، ثم قفل عائدا من حيث أتى.

ضحك مسروراً وهو يسير وحده في الطريق.

إن أحداً لن يعثر بالحلي حيث خبأها، وإذا عثر بها أحد فمن ذات الذي يرتاب فيه؟ وضحك مرة أخرى، ضحكة طويلة خافتة أشبه بفحيح الأفعى، ولكنه ما لبث أن وقف بغتة حين تحير في ذهنه هذا السؤال:

- ولماذا ارتكبت الجريمة إذن، ألمجرد الرغبة في القتل؟ أم بدافع الحماقة والطيش؟ إنني لم أفحص الحلي، ولم أفحص النقود التي في الكيس، يا إلهي! إنني مريض منذ فكرت لأول مرة في الاستيلاء على أموال العجوز؟

وواصل السير على سبيل التسلية وقتل الوقت، ولكنه كان يسير على غير هدى وساقته قدماه بالغريزة إلى بيت صديقه ديمتري بركوفتش رازدمخين وهو مثله من طلاب العلم المنتسبين إلى الجامعة، يمتاز عنه بأنه كبير الجسم قوي العضلات، محب للدعاية.

صعد روديون إلى غرفة صديقه في الطابق الخامس ولم تكن أفخر من غرفته، فدق الباب، وفتحه بركوفتش بنفسه. ولم يكن الصديقان قد تقابلا منذ بضعة أسابيع، فلماذا رأى بركوفتش صاحبه صفر بشفتيه وهتف:

- ماذا؟ أهذا أنت؟

ونظر إلى ثيابه الرثة وسرواله المهلهل واستقر بصره على وجهه الشاحب فصاح وفي عينيه نظرة إشفاق وعطف:

- ماذا بك يا روديون؟ ادخل يا رجل!

ولكن روديون ظل واقفا بالباب، كأنما تسمرت قدماه بالأرض، فهتف بركوفتش:

- إنك مريض يا روديون.. ألا تشعر بذلك؟

وأراد أن يجس نبضه، فاجتذب روديون يده بخشونة وقال بلسان متلعثم:

- لقد جئت لأقول لك إنني بحاجة إلى تلاميذ، ولكن لا، إنني لست بحاجة إليهم. إنني...

فقاطعه بركوفتش وهو لا يحول عينيه عن وجهه:

- كلا.. إنني لا أهذي، ولكنني.

ولم يتم عبارته بل نكص على عقبيه وصاح بغتة:

- طاب يومك.

- صبراً لحظة.. لماذا جئت إذاً؟ هل فقدت صوابك يا رجل؟ لن أدعك تذهب هكذا..

- أصغ إليَّ إذن، إنني جئت لأنني لا أعرف إنسانا آخر أسأله المعونة، جئتك لأنك من أعقل أصدقائي وأكرمهم علي، ولأنك تستطيع أن نفهم، ولكنني ألاحظ الآن أنني لست بحاجة إلى معونة أحد؛ فإلى اللقاء.

- صبرا يا رجل، ودعنا نتفاهم، إنني طلقت التدريس واستعنت عنه بترجمة الكتب لأحد الناشرين، وقد كنت أعتمد على مساعدتك لأنك أعلم مني بدقائق اللغة الألمانية، أصغ إلي، لقد عرض عليَّ هذا الناشر ثلاثة روبلات أجرا لترجمة هذه الصفحات من اللغة الألمانية، إذن في استطاعتك أن تقوم بهذه المهمة إذا شئت، ها هي الروبلات الثلاثة.

فتناول روديون الصفحات والروبلات الثلاثة في سكون وانصرف، ولشد ما كانت دهشة بركوفتش حين رآه يعود أدراجه في الحال ويرد إليه الصفحات والروبلات الثلاثة في سكون كما أخذها وصاح:

- لا شك أنك محموم يا روديون ما معنى هذه المهزلة، ولماذا جئت إذن؟

فقال روديون وهو يهبط السلم:

- لا أريد أن أترجم شيئا.

الفصل الثالث

مضى الوقت بسرعة مع المرض فلم يذكر روديون كم قضى في فراشه وهو فريسة الحُمى، فقد خيل إليه في بعض الأحيان أنه قضى شهرا، وخيل إليه حينا آخر أنه قضى يوما، بيد أنه تذكر وقتاً كان يفيق فيه من ذهوله وهذيانه فيجد حوله أناسا كثيرين يتحدثون ويتجادلون، وتذكر أنه حاول مرارا أن ينهض من فراشه، ولكن أحد الناس كان يقهره على البقاء.

وفي أحد الأيام فتح عينيه فوجد غرفته تسبح في أشعة الشمس، ورأى أمامه أنستاسيا ورجلا آخر لا يعرفه. ورفع رأسه عن الوسادة وقال وهو يشير إلى الرجل:

- من هذا يا أنستاسيا؟

فهتفت المرأة:

- حمدا لله، ها هو استيقظ وأفاق من ذهوله.

فتمتم الرجل:

- نعم، إنه أفاق من ذهوله.

فسأله روديون:

- من أنت؟

وقبل أن يتمكن الرجل من الإجابة فتح باب الغرفة ودخل معه صديقه بركوفتش بقامته المديدة وجسمه الضخم وصاح وقد انبسطت أساريره:

- هل استيقظت يا صديقي العزيز؟

فقال الرجل المجهول:

- إنه استيقظ في التو واللحظة.

- ولكن من أنت؟ ومن الذي سمح لك بالدخول؟

- إنني قادم لعمل.

- إذن تفضل بالجلوس!

ثم تحول إلى روديون واستأنف:

- لقد أحسنت صنعا بأن أفقت يا روديون، فأنت لم تتناول طعاما أو شرابا منذ أربعة أيام، وقد زارك زوسيموف مرتين، هل تعرف الدكتور

زوسيموف؟ إنه فحصك بعناية شديدة وقال: إن رأسك مليء بالأوهام بسبب سوء التغذية والإفراط في تناول الجعة ولكنك ستبرأ حالا.

ثم التفت إلى الزائر وقال:

- ليس بودي أن أبقيك طويلا، فهل تتفضل بإيضاح ما تريد؟

فأجاب الزائر موجها كلامه إلى روديون:

- إنني عميل رجل من الممولين يدعى أثناسيوس فاكروشن، وقد كلفني فاكروشن بأن أعطيك ثلاثين روبلا أرسلتها إليك والدتك، فما تعمل بهذا المبلغ؟

ففكر روديون قليلا ثم أجاب:

- نعم.

- إذن فإليك هذا المبلغ، وتفضل بتوقيع صك.

فدفع روديون هذه الورقة التي قدمها إليه الرجل وقال:

- لا أريد هذه النقود.

فصرخ بركوفتش:

- لا تريدها، ضع اسمك على الصك يا رجل، إن النقود هي كل شيء

في الوجود. إن الناس يرتكبون جرائم القتل للحصول على مبلغ أقل من هذا، أرى أن أصابعك ترتجف، فدعني أساعدك في كتابة اسمك، هذا حسن، إليك الصك يا سيدي.

- شكرا لك.

وانصرف الرجل وتحول بركوفتش إلى صديقه واستطرد:

- والآن يجب أن تتناول معي قليلا من الحساء، إنني أتناول طعامي هنا منذ ثلاثة أيام، أين الحساء يا أنستاسيا؟

فانصرفت أنستاسيا مسرعة وظل روديون ينظر إلى صديقه في تبلد ولا يتكلم، وعادت الخادمة بآنية الحساء، فأسند بركوفتش رأس صديقه إلى ساعده وراح يصب الحساء في جوفه بملعقة صغيرة.

ولم يبد روديون أية مقاومة، وقبل مساعدة صديقه رغم شعوره بأنه غير قادر على الجلوس وتناول الطعام بنفسه، تملكه نوع من المكر الخبيث، وخطر له أن يتظاهر بالضعف والعجز ليتسنى له أن يرى ويسمع ويلاحظ، قال بركوفتش:

- هل تعلم أنني لازمتك من أول يوم يا روديون، لقد غاظني سلوكك يوم جئت لزيارتي، فقررت أن أبطش بك، ولكن حدث أني ذهبت إلى مقهى كريستال بالاس فتقابلت هناك مع إيليا بتروكوف ضابط البوليس وزميله توميتش وصديقه زميتوف كبير الكتبة في مخفر البوليس، وكنت

لا أزال أتميز غيظا من سلوكك، فسردت عليهم ما حدث، وكانت دهشتي لا حد لها عندما وجدت أنهم يعرفونك حق المعرفة، وقد قصوا على حكاية استدعائك للتحقيق معك في شكوى صاحبة المنزل، وعندئذ فقط أدركت سر اضطرابك وانزعاجك وقررت أن أسارع إليك للترفيه عنك والتوفيق بينك وبين صاحبة المنزل، ولكني وجدتك فريسة الحمى.

فأغمض روديون عينيه قليلا ثم سأل في صوت خافت:

- وهل عرفت رغم ذهولي ومرضي؟

- كلا، وكان وجودي يثيرك في بعض الأحيان، سيما عندما أحضرت معي زيمتوف.

غادر روديون رأسه بسرعة وقال وهو ينظر إلى صديقه بحدة:

- زيمتوف الموظف بمكتب البوليس، ولماذا أحضرته معك؟

- لماذا؟ وماذا يزعجك من قدومه؟ لقد رغب في معرفتك بعد إطرائي لك، إنه شاب ظريف، ونحن أصدقاء من زمن بعيد ونتقابل كل يوم تقريبا.

- وهل كنت أهذي كثيرا؟

- نعم ولكن لا يجب أن يزعجك ذلك.

- وبما كنت أهذي؟

- كنت تهذي بما يهذي به المحموم أمثالك، ولكن لماذا تضيع الوقت في هذا الكلام على غير طائل، دعنا نتحدث فيما يهم من الشؤون.

فنهض واقفا وتناول قبعته، فقال روديون مرة أخرى:

- بماذا كنت أهذي؟

- لا ضرورة لترديد هذيانك، هل تخشى أن تكون قد فضحت نفسك وكشفت عن أسرارك؟ كن مطمئنا أيها الصديق فإنك لم تتكلم عن النساء، كل ما هنالك أنك ذهبت تردد اسم توفيتش وإيليا بتروكوف، ومن عجب أنك كنت شديد الاهتمام بحذائك، فسألت عنه مرارا حتى اضطر زيمتوف أن يبحث عنه في كل ركن ثم قدمه لك فاحتضنته ولم تتركه بعد ذلك، وأكبر ظني أنه لا يزال بين أغطية فراشك، ولكن ما لنا ولهذا، سآخذ الآن خمسة روبلات من المبلغ الذي أرسلته إليك أمك، وسأقدم إليك حسابا عنها فيما بعد.

وانصرف بركوفتش، وما كاد يغلق الباب وراءه حتى تلاشى وقع أقدام بركوفتش على السلم ثم هتف:

- والآن هلمّ إلى العمل، ولكن، ولكن ماذا أعمل؟

نسي الغرض الذي من أجله وثب من الفراش، وعاد يسأل نفسه:

- يا إلهي، يا إلهي، أريد فقط أن أعلم هل يعرفون الحقيقة ويتظاهرون بأنهم لا يعرفون.

وذكر ما قاله بركوفتش عن الحذاء، فبحث عنه حتى وجده بين الأغطية، كان ملوثا بالأوحال بحيث يستحيل اكتشاف آثار الدم. تساءل: "وإذن لماذا جاء زيمتوف؟ كلا، فيجب أن أفرَّ في الحال؟ ولكن إلى أين؟ إلى أمريكا، ولكن ألا يحتمل أن يكونوا قد أقاموا الحراس حول المنزل لمراقبتي؟"

ووقع بصره فوق المائدة على زجاجة ملأى بالجعة حتى نصفها، كانت من مخلفات بركوفتش بغير شك، وتناولها وأفرغ محتوياتها في جوفه، فشعر بالانتعاش وتمدد في مرقده، وما لبث أن غلبه النعاس. وعندما فتح عينيه وجد بركوفتش جالسا بالقرب منه فسأله:

- كم الساعة الآن؟

- السادسة، إنك نمت ست ساعات متوالية.

- يا إلهي كيف أمكن أن أنام كل هذا الوقت؟

- وماذا يمنعك من أن تنام؟ حدثني، بماذا تشعر الآن؟

- إنني بخير حال، إنني لست مريضا.

فأخرج بركوفتش من تحت مقعده حزمة من الثياب وقال:

- ستصبح بعد دقائق رجلا غير الرجل، تأمل هذا الثوب الأنيق. لقد أكد لي البائع أنه من ثياب سكرتير السفارة البريطانية وقد باعه السكرتير لحاجته إلى النقود، ثم انظر إلى هذه القبعة الجديدة، وهذا القميص الأنيق، إنني دفعت ثمن كل هذا خمسة روبلات، وأنا واثق أن الثوب سيلائمك كأنه صنع لك خصيصا.

قال زوسيموف بعد أن فحص مريضه:

- إن النبض خفيف، هل تشعر بصداع؟

فأجاب روديون:

- كلا.. أظن أنني في خير حال.

فهز الطبيب كتفيه وقال:

- لا يجب أن يتناول شيئا غير الحساء والشاي والدواء الذي وصفته بالأمس، ومن الضروري ألا يبرح الفراش اليوم وغدا على الأقل.

فصاح بركوفتش في يأس:

- غدا، لقد كان في نيتي أن أصحبه معي غدا إلى كريستال بالاس حيث أقيم حفلة استقبال لعمي لمناسبة قدومه إلى سان بطرسبرج، ألا تشترك معنا في هذه الحفلة يا زوسنوف؟ سترى فيها كثيرين من أصدقائك في مقدمتهم مسيو برفيريوس بتروفتش، قاضي التحقيق.

فهتف الطبيب:

- آه برفيريوس بتروفتش؟ أليس هو الذي يقوم بتحقيق حادث مقتل المرأة العجوز إلينا إيفانوفا؟

فابتسم بركوفتش ساخرا وأجاب:

- نعم هو بعينه.

- لقد قيل أنه ألقى القبض على القاتل وجمع أدلة الإدانة.

- أدلة الإدانة؟ لا توجد أدلة على الإطلاق يا سيدي، إنه ألقى القبض على نقاش يدعى نيكولا، ولكني واثق بأنه مخطئ، كما أخطأ حين قبض على كوخ وبستریاكوف اللذين ذهبا لزيارة العجوز يوم لقيت حتفها. إن هؤلاء المحققين يخبطون خبط عشواء، انظر إلى ما حدث لكوخ وصاحبه، لقد ألقي القبض عليهما، وحامت حولهما الشبهات، لا لشيء ألا أنهما قررا أن باب العجوز كان مغلقا، ولما جاء البواب وجد الباب مفتوحا.

- ولماذا قبض على هذا النقاش؟

- سأذكر لك الظروف والملابسات التي أدت إلى القبض عليه، فقد حدث في اليوم الثالث بعد الجريمة، بينما كان رجال البوليس يحاولون إكراه كوخ وصاحبه على الاعتراف، أن تقدم إلى المحقق رجل يدعى دوكشن فوضع بين يديه قرطا من الذهب وسرد عليه القصة التالية: قال إنه يملك حانة أمام منزل العجوز، وأن نيكولا ذهب إلى حانته في أحد الأيام وقدم إليه ذلك القرط الذهبي وطلب أن يقرضه ثلاثة روبلات، ولما سأله عن مصدر القرط قرر أنه وجده على قارعة الطريق.

وفي اليوم التالي ذاع نبأ مصرع العجوز، وكان دوكشن يعلم أن نيكولا قد قام مع زميل له يدعى ديمتري بطلاء جدران الطابق الثاني من منزل العجوز، فخطر له في الحال أن ذلك القرط ربما كان من الرهائن التي سرقت من إيليا إيفانوفا بعد قتلها، وانتظر حتى جاء نيكولا في اليوم التالي ثم راح يجاذبه أطراف الحديث وسأله في لباقة على مسمع من الزبائن:

- أين وجدت القرط الذهبي يا نيكولا؟

- وجدته في الشارع..

- ألم يبلغك نبأ ما حدث في هذا المنزل؟

فامتقع وجه النقاش وقال: كلا! فنظر إليه دوكشن في حدة، ولم يحتمل نيكولا هذه النظرة قبعته وولى الأدبار. وأثار فراره ريبة دوكشن فقصدا توا إلى مكتب التحقيق وقصا عليه ما حدث. فقال الدكتور زوسيموف:

- لقد أحسن صنعا.

فقال بركوفتش:

- لصنع النهاية!

بعد أن سمع المحقق حديث دوكشن أصدر أمره بالقبض على نيكولا وزميله ديمتري، وقد وجد ديمتري في غرفته فاعتقل، وعلم رجال البوليس أن نيكولا يحتسي الخمر في حانة في الضواحي ثم علموا أنه حاول أن يشنق نفسه على شجرة في الغابة فمنعه بعض الفلاحين، وقد قبض عليه بعد هذه المحاولة وسيق إلى المحقق فوجه إليه في الحال تهمة قتل إيلينا إيفانوفا! سأله المحقق:

- ألم تر أحداً يصعد السلم حيث كنت تشتغل مع ديمتري بطلاء الجدران في الطابق الثاني؟

- كلا، لم أر أحداً.

- ألم تسمع ضجة أو جلبة غير عادية؟

- كلا.

- متى علمت بنبأ مصرع إيلينا وأختها؟

- بعد يومين.

- أين وجدت القرط؟

- في الشارع.

- ولماذا فررت من حانة دوكشن عندما حدثك عن الجريمة.

- فررت خوفا.

- ولم كنت خائفا؟

- من القانون.

- وماذا يخيفك من القانون إذا كنت لم تخرقه ولم تخرج على أحكامه.

فصمت نيكولا ولم يجب، وألقى عليه المحقق هذا السؤال مرارا حتى اعترف أخيرا بقوله:

- إنني لم أجد القرط في الشارع وإنما وجدته في الشقة التي كنت أشتغل مع ديمتري بطلاء جدرانها.

وسأله المحقق عن الظروف التي وجد فيها القرط فأجاب:

- فرغنا من عملنا في الساعة الثامنة، وكنت أتأهب للرحيل حين وضع ديمتري الفرشاة على وجهي على سبيل الدعابة فاصطبغ وجهي بالطلاء، وخرج ديمتري من الشقة مسرعا، فانطلقت في أثره وطاردته على السلم، وأمسكت به في عرض الطرق، وتصارعنا – على سبيل الدعابة كذلك – ولكنه تمكن من الإفلات مني، ولم أستطع اللحاق به، فرجعت أدراجي إلى الشقة لأجمع أدوات العمل ورأت القرط ملقى بالقرب من الباب فالتقطته.

هُنا رفع روديون رأسه عن الوسادة فجأة وصاح:

- بالقرب من الباب؟ هل قال أنه وجد بالقرب من الباب؟

فنظر إليه بركوفتش في دهشة وأجاب:

- نعم.. فماذا يهمك من ذلك؟

وأجاب روديون في صوت خافت: "لا شيء"، وحوّل وجهه نحو الجدار فساد الصمت لحظة ثم قال بركوفتش وهو ينظر إلى الطبيب:

- أظنه كان يحلم.

فهز زوسيموف رأسه سلبا وقال:

- امض في قصتك، ماذا حدث بعد ذلك؟

- ماذا حدث بعد ذلك؟ لا شيء طبعاً، فقد التقط نيكولا القرط وذهب إلى دوكشن وأخذ منه الروبلات الثلاثة. تلك هي قصة نيكولا، فهل تعرف ماذا كانت النتيجة؟ كانت أن المحقق أطلق سراح كوخ وصاحبه ووجه إلى نيكولا تهمة قتل إيلينا وشقيقتها بالاشتراك مع ديمتري.

- لقد كاد للمحقق أن يرتاب فيه، لا سيما وأنه كذب أولاً فيما يتعلق بالمكان الذي عثر فيه بالقرط.

- ولكن ما قولك في أن بواب المنزل وبعض المارة قد أيدوا روايته وشهدوا بأنهم أبصروا به وهو يعدو في أثر زميله ديمتري وأنهم انتهروا للضجة التي أحدثاها؟ وإذا صح أن نيكولا وديمتري قد ارتكبا الجريمة، فهل يعقل أنهما لفتت إليهما الأنظار عوضا عن أن يلوذا بالفرار في هدوء يعمدان إلى اللعب كالأطفال وإحداث مثل هذه الضجة التي وسكون؟

- وهل ثبت أن هذا القرط من الرهائن التي سرقت من العجوز؟

- نعم، فقد ذهب كثيرون من زبائن العجوز إلى مكتب المحقق للاستفسار عن مصير حليهم ورهائنهم وقررت إحدى السيدات أن القرط يخصها.

فهز زوسيموف رأسه وقال:

- أرى أن الأدلة كافية لإدانة نيكولا، وإلا فكيف تفسر وجود القرط معه، إذا افترضنا أنه صادق فيما يقول؟

فهتف بركوفتش:

- إن المسألة لا تحتاج إلى تفسير، فالقرط قد سقط من القاتل الحقيقي، ولا بد أنه كان مختبئا في شقة العجوز عندما أقبل كوخ وزميله، ولما انصرفا ثانية لاستدعاء البواب تسلل القاتل من شقة العجوز وبدأ يهبط السلم، ولكن فوجئ بصعود كوخ والبواب، فعرج إلى الشقة الخالية في الوقت الذي كان فيه نيكولا يطارد زميله في الطريق.

فنظر إليه الطبيب بإعجاب وقال:

- الحق أنه تفسير معقول، وإذا صح كان دليلا على أن القاتل على جانب عظيم من الذكاء.

فقال بركوفتش:

- بل قل إنه كان حسن الحظ إلى أبعد حد.. ولو..

ولم يتم بركوفتش عبارته لأن الباب فتح في تلك اللحظة ودخل منه رجل لم يسبق لأحد أولئك الثلاثة أن رآه.

الفصل الرابع

أجال الزائر في الغرفة نظرة تنم عن الاحتقار والاشمئزاز واستقرت عيناه أخيراً على وجه روديون الذي كان يُحملق نحوه في جرأة وقحة، واستمر الصمت دقيقة أو أكثر ثم قال الزائر:

- إنني أرغب في مقابلة روديون رومانوفتش راسكولينكوف الطالب، أو الذي كان طالبا بالجامعة، فهل هو يقيم هنا؟

فأجابه بركوفتش:

- ها هو نائم في فراشه، فماذا تريد منه؟

وظل روديون ينظر إلى الزائر بحدة دون أن ينطق بكلمة.

قال الزائر:

- أنا بيتر لوشن.

ولو قال: أنا قيصر روسيا، لما كانت لهجة أدائه على هذا القدر من الصلف والكبرياء.

ولزم روديون الصمت فدهش لوشن وسأل:

- كيف ذلك؟ ألم تسمع باسمي؟ ألم يصلك نبأ عني؟

فنظر روديون إلى السقف ببساطة كأنه لا يشعر بوجود الزائر، واحمر وجه لوشن وارتسم الغضب في عينيه، قال:

- قد أظن أن الخطاب الذي أرسل إليك منذ عشرة أيام قد...

فقاطعه بركوفتش فجأة:

- ولكن صبراً، لماذا أنت واقف بالباب؟ إذا كان عندك ما تريد أن تقوله فابدأ بالجلوس.

فظهرت علامات الامتعاض على وجه لوشن، وألقى بنفسه على أحد المقاعد. قال بركوفتش بشيء من الخبث، ولعله كان يرمي إلى تحطيم كبرياء ذلك المتعجرف:

- معذرة، إذا كان روديون لا يستطيع أن يقيم لك حفلة استقبال، فالواقع أنه مريض منذ خمسة أيام، وقد قضى الأيام الثلاثة الأخيرة في هذيان مستمر. أما أنا فصديق روديون، وهذا السيد طبيبه، فهل تتفضل بالإفصاح عن المهمة التي ساقتك إلينا؟

- شكراً لله

ثم التفت إلى زوسيموف وقال:

- ألا تظن أن وجودي وحديثي يزعجان المريض؟

فأجاب زوسيموف وهو يتثاءب:

- كلا، بل ربما كان وجودك مدعاة لتسليته

فتحول لوشن إلى روديون وقال:

- لقد ذكرت لي والدتك أنها ستُحدثك عن رسالة تكتبها إليك، ولذلك لم أحضر لمقابلتك تواً عقب وصولي إلى سان بطرسبرج، وتريثت قليلا حتى تتسلم رسالة والدتك، وتتوفر على دراسة ما جاء بها، وأنا الآن شديد الدهشة الآن.

فقاطعه روديون بأن صاح في ضجر:

- إنني أعرف ما هنالك، وأعرف أنك العريس المحترم أليس كذلك؟

فامتقع وجه لوشن غضباً، ولكنه لزم الصمت كما لو كان ينتظر إيضاحاً أوفى. أما روديون فإنه شرع يتأمل الزائر عن كثب، كأنه وجد فيه ما يلفت النظر. والواقع أن جميع الدلائل كانت تدل على أن لوشن قضى وقتاً ليس بالقليل في العناية بثيابه وهندامه قبل أن يحضر لمقابلة صهره. نظر إليه روديون طويلا، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة، ورفع عينيه نحو سقف الغرفة كما فعل في البداية، وتحرك لوشن في مقعده بقلق، وضاق ذرعا بسكوت روديون فقال:

- يؤسفني كثيرا أن أجدك في هذه الحالة، ولو علمت بمرضك لأسرعت بزيارتك قبل الآن، ولكن يجب أن تقدر ظروفي وأعمالي الكثيرة، أضف إلى ذلك أنني قضيت الأيام الأخيرة مترقبا قدوم والدتك وأختك في كل لحظة!

وهنا حول إليه روديون رأسه وفتح فمه كأنه يريد أن يقول شيئا، فكف لوشن عن الكلام، بيد أن روديون لزم الصمت فاستطرد لوشن:

- نعم، إنني أترقب قدومهما في كل لحظة، وقد استأجرت لهما شقة يُقيمان فيها.

فسأله روديون بصوت خافت: "أين؟"

- في منزل قريب من هنا، هو منزل بكالت.

فقال بركوفتش:

- إنني أعرف هذا المنزل، إنه منزل في هذه الناحية، وأهله من المشبوهين وذوي السمعة السيئة، وقد ذهبت إليه ذات ليلة في ظروف غامضة.

فعض لوشن على شفته وقال:

- إنني حديث العهد بالإقامة في هذه المدينة ولا أعرف أحياءها

ومنازلها، وكل ما هنالك أنني وجدت بهذا المنزل غرفتين خاليتين نظيفتين، فاحتجزتهما لهما ريثما يتسنى لي تأسيس المنزل الذي استأجرته، وأنا في الوقت الحاضر أقيم على مقربة من هنا مع صديق لي يدعى ليزيانوف في منزل سيدة تدعى مدام ليفزل.

فردد روديون ببطء كأنما هذا الاسم قد ذكره بشيء:

- ليزيانوف؟

- نعم.. وهو موظف حكومي، فهل تعرفه؟

- نعم، كلا، لا أعرفه.

- إن ليزيانوف شاب عصري مثقف، يسرك أن تعرفه إنني أحب معاشرة أمثاله من الشباب لأنهم الذين يحملون مشعل الحضارة، ومنهم يتعلم الإنسان أحدث الآراء والمبادئ.

فصعده بركوفتش بعينيه طويلا وسأل:

- هل أستطيع أن أعلم ما هي هذه الآراء والمبادئ التي تستهويك؟

- الآراء والمبادئ العصرية التي هي أحدث ما أسفرت عنه دراسات المفكرين المتقدمين، انظر إلى مثلا، إنني قضيت الأعوام العشرة الأخيرة في الأقاليم فلم أضع قدمي في سان بطرسبرج، وصحيح أن

التطورات والآراء العصرية تنفذ إلى الأقاليم عاجلا أو آجلا، ولكن الإنسان لكي يلمس أثر هذه التطورات والآراء يجب أن يعيش في العاصمة، ويعاشر الشباب، هذا العصر أبعد نظرا وأقدر على ترويض نفوسهم على حقائق الحياة ومقتضياتها منا نحن الذين تجاوزنا مراحل الشباب وأصبحنا عاجزين عن التحرر من التقاليد والتعاليم العتيقة البالية.

فقال زوسيموف:

- هذا صحيح.

أما بركوفتش فإنه قلب شفتيه باحتقار وقال:

- هذه نظرية مبتذلة لا يؤمن بها إلا أهل الريف.

فأجاب لوشن:

- أنت مخطئ يا سيدي، وسأضرب لك مثلا، لقد علمونا في الصغر أن نحب جيراننا، وهذا الحض على حب الجار هو من التقاليد البالية العتيقة التي تنفر منها مقتضيات هذا الزمن، والواقع، هل تعلم ماذا تكون النتيجة إلا أنا أحببت جاري كما يريد أسلافنا على أن نحب جيراننا؟ تكون النتيجة أنني يجب أن أشطر ثوبي إلى شطرين وأعطي جاري أحدهما، ومتى فعل الجميع ذاك وأحبوا جيرانهم أصبح الناس نصف عرايا. ولكن المبادئ الحديثة تقول: أحبب نفسك قبل أن

تحب أي إنسان آخر، لأن كل شيء في هذا الوجود قائم على المصلحة الذاتية، ومتى عملت بهذا المبدأ الذي تؤيده الحقائق الاقتصادية، أمكنك أن تحتفظ لنفسك بكل ثوبك. أما الجيران فلن يتركوا عراة كما نتصور، وهم بدلا من أن ينالوا نصف ثوب عن طريق الإحسان سيجدون ثوبا كاملا عن طريق الرخاء العام.

فقال بركوفتش ببرود:

- عفوا يا سيدي، فإنني لا أفهم نظريتك، أو على الأصح إنني أستنكر نظريتك، ويخجلني أن يكون في الوجود إنسان مثلك يدعو إلى الأنانية بهذا المعنى الذي تنفر منه الوحوش في الغابات، لقد أصغيت إليك لكي أفهم أي نوع من الرجال أنت، وقد عرفتك الآن على حقيقتك.

فاحمر وجه لوشن وصاح:

- هل تعني يا سيدي أنني...

فقاطعه بركوفتش بخشونة:

- لقد صارحتك بما أعني.

شعر لوشن بأن جو الغرفة لا يلائمه، وقرر أن ينسحب، فقال محدثا روديون:

- آمل يا سيدي أن تتوثق أواصر الصداقة بيننا في المستقبل بحكم صلة القربى التي تربط الآن بيننا، وإني أرجو لك شفاء سريعاً مما أصابك.

فلم يجبه روديون.. كان يبدو كأنما الجميع يتآمرون عليه ويصرون بإلحاح على أن يتجاهلوه.

قال زوسيمون مستطردا الحديث الذي قطعه قدوم لوشن:

- أكثر الظن أن قاتل العجوز هو أحد المدينين لها.

فأجابه بركوفتش:

- هذا أمر لا شك فيه، إن مسيو برفيريوس الذي يقوم بتحقق هذه القضية هو من أقربائي وقد تناقشنا طويلا في ملابسات الجريمة وظروفها، ولكنه لم يصارحني برأيه. بيد أنني أعلم أنه شرع في استدعاء أصحاب الودائع لاستجوابهم.

فسأله روديون بغتة:

- أصحاب الودائع؟

- نعم، فأية غرابة في ذلك؟

- لا شيء.

فسأله زوسيموف:

- وكيف عرفهم؟

- لقد كانت العجوز تحزم الحلي والأشياء المرهونة عندها، وتكتب على كل حزمة اسم صاحبها وتاريخ إيداعها والمبلغ الذي اقتضه.

- لا شك أن المجرم على جانب عظيم من الجرأة والدهاء.

فهتف بركوفتش:

- ذلك ما يعتقده الجميع، ولكنني أرى غير هذا الرأي، وأعتقد أن المجرم ليس جريئا أو داهية، وأن هذه أول جريمة ارتكبها. كل ما في الأمر أن المصادفات وحدها هيأت له ارتكاب الجريمة والفرار بعد ارتكابها، على أنه لم يفد من هذه المصادفات، فقنع بأن وضع في جيبه بضعة روبلات، وبعض الحلي، وترك الأدراج المكدسة بالنقود الذهبية وأوراق النقد التي تربو قيمتها على بضعة آلاف من الروبلات. لقد عرف المجرم كيف يقتل، ولكنه لم يعرف كيف يسرق.

وهنا قال لوشن، وكان لا يزال واقفا موقف التردد بين أن ينصرف أو يبقى:

- لا شك أنكم تتحدثون عن مقتل العجوز المرابية وأختها؟

- هل وصلك نبأ هذه الجريمة؟ إنها موضوع الحديث في سائر منتديات المدينة.

- وهل تعرف التفاصيل؟

- لا أستطيع أن أقول أنني أعرفها على وجه التحقيق، ولكن الجريمة في ذاتها تهمني من ناحية أخرى، وإذا أمعنا النظر في أكثر الجرائم التي ارتكبت في المدة الأخيرة وجدنا أن المجرمين هم من الطبقة المثقفة في البلاد، فهذا طالب متهم بالسطو على مكتب البريد، وأولئك رجال من أصحاب الشخصيات البارزة يشتغلون بتزييف النقود حتى إرشاد أحد كبار الأساتذة، وأخيراً، ها هي جريمة قتل العجوز المُرابية، فمن المؤكد أن القاتل ليس من الفلاحين أو العمال، لأن زبائن العجوز كانوا جميعا من موظفي الحكومة وطلاب الجامعة، فكيف تفسر تفشي روح الإجرام بين أفراد الطبقة المثقفة في المجتمع؟

أجاب بركوفتش على الفور:

- كيف تفسر تفشي روح الإجرام؟ إن تفشي الإجرام هو النتيجة المنطقية للنظريات الاجتماعية التي كنت تقول بها في التو واللحظة.

- النظريات الاجتماعية!

- عليك بمراقبة الحالة النفسية التي تخلقها هذه النظريات فسترى أنها من النوع الذي يحض الناس على قطع رقاب بعضهم بعضا.

وهنا رفع روديون رأيه وأصغى باهتمام وشفتاه ترتجفان وأنفاسه تتردد بسرعة.

قال لوشن:

- إن نظرياتي لا تحض على ارتكاب جرائم السطو والتزوير والقتال، وإذا كان.

فقاطعه روديون فجأة وصاح بصوت مرتجف:

- ولكن هل حقا أنك ذكرت لخطيبتك في منزلها أنك مغتبط لفقرها، لأن انتشال الزوجة من مخالب الفقر يمكن الزوج من السيطرة على حياتها وكيانها؟

فاحمر وجه لوشن وهتف:

- يا إلهي كيف تمسخ الألفاظ وتحمل من المعاني أكثر مما تحمل! عفوا يا سيدي، إني أعلم أن والدتك هي التي أسندت إلى هذه العبارات ولكني أؤكد لك أنها لم تنقل عباراتي بأمانة، فأنا....

فرفع روديون رأسه، وصاح وعيناه تتألقان:

- هناك شيء تريد أن تعرفه.

- ما هو؟

- هو أنك إذا نطقت مرة أخرى بكلمة تشتم منها رائحة الإهانة لأمي فإنني لا أتردد أن أقذف بك من نافذة الغرفة

فذعر بركوفتش وهتف:

- يا إلهي ماذا دهاك يا روديون؟

أما لوشن فقد امتقع لونه، ولزم الصمت لحظة حتى تمت له السيطرة على عواطفه ثم قال:

- أصغ إلي يا سيدي، إنني شعرت بنفورك وعدائك منذ البداية، فتعمدت أن أبقى لأعرف المزيد، وقد كنت على استعداد لأن أنسب نفورك وعدوانك إلى ما تشعر به من ضيق الصدر بسبب مرضك، أما الآن..

فصاح روديون:

- إنني لست مريضا.

- ذلك مما يزيد الطين بلة.

- اذهب إلى الشيطان.

فاحتفظ لوشن بقبعته ورمق روديون بنظرة سخط وعرج لا يلوي على شيء؛ فصاح روديون وهو في ثورة غضبه:

- اتركوني جميعكم، دعوني وشأني، إنكم تعذبونني، وأنا لا أخافكم، أنا لا أخاف أحدا الآن.

فقال زوسيموف محدثا بركوفتش:

- حسنا، ولكن نتركه وحده؟

فتأبط الطبيب ساعده، وابتعد به وهو يهمس:

- يجب ألا تضايقه.

فسأل بركوفتش وهو يغلق الباب وراءه:

- ولكن ماذا دهاه؟

- أكبر ظني أن هناك فكرة ثابتة تملأ ذهنه وتحل تفكيره.

- لقد فهمت مما سمعته أن لوشن هذا ينوي الاقتران بشقيقة روديون، وأن روديون تسلم رسالة بهذا المعنى قبيل مرضه.

- نعم ومن سوء الحظ أن لوشن جاء اليوم لزيارة صهره فهذه الزيارة قد أفسدت كل شيء، ولكن ألم تلاحظ أن روديون كان قليل الاكتراث بكل شيء ما عدا حديثنا عن جريمة القتل؟

- نعم، لقد لاحظت ذلك، ودهشت، إن الحديث عن هذه الجريمة

يترك في نفسه أثرا عميقا، وقد أغمي عليه في مكتب البوليس حين سمع حديثا في هذا الصدد.

- سنتكلم في هذا الموضوع في المساء، إنه يهمني كثيرا وربما استطعت في المساء أن أذكر لك أمرا لا يخطر لك على بال.

الفصل الخامس

بعد أن انصرف بركوفتش وزوسيموف، وثب روديون من مكانه، وأوصد الباب بالمزلاج، وشرع يرتدي الثياب الجديدة التي ابتاعها صديقه، وكان يشعر بطمأنينة عجيبة، فقد حزم رأسه في أمر واطمأن إلى القرار الذي اتخذه، غمغم:

- يجب أن أقطع الشك باليقين، نعم، سيكون اليوم آخر عهدي بالمخاوف والريب.

وأشفق أن تعجز ساقاه الضعيفتان عن حمله، ولكنه استمد عزيمته بقوة وارتدى ثيابه ووضع في جيبه بقية المبلغ الذي بعثته إليه أمه، وتسلل إلى الخارج، وكان الحر شديداً كسابق عهده به، ولكنه راح يستنشق الهواء الدافئ المُغبر بجشع.

سار على غير هدى، وهو لا يعلم ماذا يجب أن يفعل، خاطر واحد كان يملأ ذهنه، وهو أن الموت أفضل ألف مرة من الحياة في قلق مقيم ورعب مستمر، فإذا كان القوم يرتابون في أمره فلماذا لا يسلم نفسه ويعترف؟

كانت الشوارع غاصة بالناس والنساء عاريات الرءوس يتبخترن في

غلائلهن الشفافة، وأنغام الموسيقى تنبعث من المطاعم والحانات، كل شيء تقع عليه العين يحبب الإنسان في الحياة.

مر في طريقه بمقهى كريستال بالاس، وتذكر أنه المقهى الذي يختلف إليه بركوفتش للاجتماع بأصدقائه وقراءة الصحف، فغمغم يُحدث نفسه:

"نعم، يجب أن أقرأ الصحف لأعرف اتجاه التحقيق".

ودخل المقهى ووجد بها عدد من الزبائن مبعثرين بين الموائد، ورأى شابا يشبه زيمتوف، ولكنه لم يكن واثقا من أنه هو. وسأله الخادم:

- هل تريد قدحا من الجعة يا سيدي؟

- كلا، بل أريد قدحا من الشاي، وأريد الصحف التي صدرت في الأسبوع الأخير.

وحمل إليه الخادم ما طلب، فتناول إحدى الصحف وراح يفتش فيها حتى عثر ببغيته. خُيل إليه أن الحروف ترقص أمام عينيه ولكنه استمر يقرأ باهتمام وإصرار، والصحيفة تهتز بين يديه المرتجفتين، وفجأة أحس بشخص يجلس على مقربة منه، فنظر إليه وعرف أنه زيمتوف، ورآه زيمتوف بدوره فابتسم له كأنه عرفه منذ أعوام وسأله:

- أهذا أنت؟ لقد قال لي بركوفتش بالأمس أنك ما زلت طريح الفراش

فاقد الرشد، ولكن هل تعلم أنني ذهبت لزيارتك في...

فوضع روديون الصحيفة وقاطعه وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة.

- أعلم أنك، وأعلم أنك بحثت عن حذائي، إن رائحة الشمبانيا تنبعث من فمك فمن أين لك ثمن الشمبانيا؟

فاحمر وجه زيمنوف وسأله: "ماذا تعني؟"، فابتسم روديون مرة أخرى وقال وهو يُربت على كتفه:

- لا شيء أيها الفتى العزيز، لا شيء، إنني لا أقصد إلا مداعبتك كما كان ديمتري يداعب نيكولا.

- يُخيل إلي أنك تعرف تفاصيل الجريمة.

- نعم، وربما كنت أعرف من هذه التفاصيل أكثر مما تعرف.

- من دواعي الأسف أنك غادرت فراشك، ولكن ماذا تقرأ؟

- إنني أقرأ الصحف.

- لقد نسيت حرائق كثيرة في الأيام الأخيرة..

فألقى روديون على محدثه نظرة غريبة وارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة ثم قال:

- إنني لا أعبأ بأنباء الحرائق، ولكن هل يهمك كثيرا أن تعرف ماذا أقرأ؟

- ذلك لا يهمني في كثير أو قليل، كل ما هنالك...

- أصغ إليَّ.. إنك حصلت على نصيب من الثقافة.. أليس كذلك؟

فقال زميتوف في كبرياء:

- إنني من خريجي الجامعة!

- من خريجي الجامعة؟ وأصابعك مزدحمة بالخواتم الماسية، لا بد أنك أسعد إنسان في الوجود.

وأفلتت من فمه ضحكة عصبية جعلت الدم يصعد إلى وجه زيمتوف، فقال هذا الأخير:

- ما أعجب أطوارك، إن الحمى لا تزال تجرى في عروقك، إنك تهذي.

- أتقول حقا؟ يُخيل إليَّ أن أمري يهمك، لقد سألتني منذ لحظة عما أقرأ فأجيب الآن بأنني أقرأ الصحف التي صدرت في الأيام الأخيرة، هل في ذلك ما يريب؟ أتريد المزيد من الإيضاح، أعلم إذن أنني جئت خصيصا لأمر تفاصيل مصرع العجوز وأختها.

نطق روديون بالعبارة الأخيرة في صوت خافت يشبه الهمس، ولم يحول عينيه عن وجه زيمتوف فقابل هذا نظراته بثبات، وأخيراً قال زيمتوف:

- ولكن أي غرابة في هذا؟

- أليست هي الجريمة التي كنتم تتحدثون عنها عندي في مكتب البوليس؟

وانفجرت من فم روديون ضحكة عصبية مُزعجة تنبئ أن له رغبة خبيثة في أن يتحدى زيمتوف ويسخر منه، وقال زيمتوف:

- لا شك أنه معتوه... أو..

وصمت بغتة كأن خاطراً فُجائياً طرأ له، فصاح به روديون:

- أو ماذا؟ تكلم.

ولم يُجبه زيمتوف، واستغرق روديون بعد تلك الضحكة العصبية في صمت عميق، وارتسمت على وجهه علامات الحزن، وقال زيمتوف بعد بضع دقائق:

- بدا عليه الارتباك في هذه المدينة، لقد قرأت منذ أيام عن عصابة لتزييف أوراق النقد من فئة الخمسين.

- هذا نبأ قديم قرأته منذ شهر، هل تصف هؤلاء بأنهم مجرمون إنهم أطفال أو مُغفلون، خمسون رجلاً لتزييف أوراق النقد وترويجها، يكفي أن تكون العصابة من ثلاثة، ذلك أضمن للنجاح وعدم الافتضاح، كذلك كان من الحماقة.

- إن أي إنسان في موقفه كان لا بد أن يرتجف، ليس أسهل من الكلام ولكن حاول أن تخرج هذا الكلام إلى حد العمل وانظر النتيجة، إن المُجرم الذي قتل إيلينا إيفانوفا كان جريئا إلى أبعد حدود الجرأة، فقد دبر جريمته، وأنفذها في رابعة النهار ومع ذلك فقد ارتجفت يده واضطرب ولاذ بالفرار تاركا الغنائم وراءه، إن الجريمة تسلب المجرم رشده وحضور ذهنه.

- أتظن ذلك! إذن جرب أن تلقي القبض علي إذا استطعت.

- كن مطمئنا إلى أننا سنلقي القبض عليه إن عاجلا أو آجلا.

- وكيف تفعلون ذلك بحق السماء، إنكم لا تعرفون إلا وسيلة واحدة خرقاء هي مراقبة المشبوهين حتى إذا وجدتم أحدهم يبعثر النقود يمينا وشمالا صرختم: هو ذا المجرم.

- ذلك في الواقع ما يفعله أكثر المجرمين، إنهم لسوا مثلك ذكاء ودهاء، ومن المؤكد أنك لا تندفع إلى الحانات ومطارح اللهو بعد أن ترتكب جريمتك.

فقطب روديون حاجبيه ونظر إلى محدثه بإمعان وسأل:

- يخيل إلى أنك تريد أن تعرف ماذا أفعل بعد الجريمة

- نعم يهمني أن أعرف.

- حسنا، إذن فأصغ إلي.

وأدنى وجهه من وجه زيمتوف، وهمس بصوت جعل زيمتوف يرتعد:

- إنني أضع المسروقات في جيوبي وأذهب إلى الغابة أو إلى مكان مقفر، وهناك أبحث عن حجر في أحد الأركان، فأرفعه وأخبئ الغنيمة تحته وأهيل عليه التراب، وأترك المسروقات هناك عاما أو عامين أو ثلاثة، ولكم أن تبحثوا عنها كما شئتم.

فقلب زيمتوف شفته وقال وهو يشيح بوجهه:

- إنك مجنون بغير شك.

وكان روديون شدد امتقاع الوجه، وانقضت دقيقة شعر في خلالها برغبة جامحة في أن يتكلم ويعترف بكل شيء فسأل فجأة:

- ماذا تقول لو علمت أنني الذي قتلت العجوز وأختها؟

وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى عاد إليه رشده وشعر بخطئه وحمقه، أما زيمتوف فقد فر لونه، ولكنه ما لبث أن ابتسم وصاح به روديون:

- تكلم.. فيم تفكر؟ هل تفكر في أنني القاتل؟

- كلا طبعا، إنني الآن لا أعتقد ذلك.

- آه، هآنذا قد اعترفت، إذن فقد خطر لك في وقت ما أنني القاتل؟

- كلا، الواقع أن سلوكك أزعجني، ودفع إلى ذهني بهذا الخاطر.

- إذن فأنت لا ترتاب في ولكن لماذا ألقيتم على كل الأسئلة في مكتب البوليس؟ أيها الخادم.. كم تريد؟

- ثلاثين كوبيكا.

- إليك ورقة ذات خمسين كوبيكا، احتفظ الباقي لنفسك.

ثم التفت إلى زيمتوف وهو يلوح بالأوراق المالية في يده:

- انظر، كيف حصلت على هذه النقود، والثياب الجديدة؟ أنت تعلم أنني لم أكن أملك مالا أو ثوبا، ولكن بحسب هذا الآن، وإلى اللقاء.

وانصرف وهو يقهقه، وشيعه زيمتوف ببصره طويلا ثم غمغم: "كلا.. كلا.. إن شكوك إيليا بتروكوف لا تنهض على أساس".

أما روديون فإنه ما كاد يصل إلى الباب حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام صديقه بركوفتش، وصاح الأخير في دهشة:

- ماذا تفعل هنا بحق الشيطان، لقد ذهبت إليك ولم أجدك.

فأجاب روديون في هدوء:

- إنكم تدخلون السأم والملالة على نفسي، إنني أطلب الوحدة.

- وكيف تطمئن إلى الوحدة، وأنت توشك على أن تسقط ضعفا وإعياء، ماذا كنت تفعل هنا؟

- دعني وشأني.

حاول أن يمر فأمسك بركوفتش بساعده وهتف:

- كيف تطلب إلي أن أدعك وشأنك؟ كلا بل سأضعك في زكيبة وأصعد بها إلى غرفتك وأغلق بابها عليك.

فقال روديون بصوت هادئ:

- أصغ إلي يا بركوفتش، ألا تشعر حقا بأنني زاهد في مساعدتك وكرمك؟ وما الفائدة من الإحسان إلى شخص بصق على إحسانك؟ لماذا عنيت بي في مرضي حين كنت في إثر الموت؟ أكون شاكرا لك لو تركتني وشأني بعد الآن.

ففكر بركوفتش قليلا، ثم رفع يده عنه وقال:

- على رسلك إذن، اذهب في سبيلك.

ولكن ما كاد روديون يتقدم خطوة حتى صاح به بركوفتش:

- صبرا... لا أريد أن أراك جاثما فوق همومك، إن جماعة من أهلي سيجتمعون في منزلي هذا المساء، فتعال ورفه عن نفسك بقضاء السهرة معنا، سيكون زوسيموف معنا فتعال.

- كلا.

- أنا واثق بأنك ستأتي، وإلا كان ذلك آخر العهد بيننا.

فهز روديون كتفيه ومضى في سبيله. وسار توا إلى نهر نيفا ولم يشعر بضعفه إلا عندما وقف على الجسر وأخذ يتأمل أمواج النهر التي انعكس عليها لون أفق الغروب الأحمر حتى خيل لروديون أنه يرى سيلا من الدماء، وخيل إليه أنه سيهوي إلى الأرض، ولكن سرعان ما تعلق بسور الجسر وتماسك، واشمأز من فكرة الانتحار في ذلك النهر الدامي، ولم يلبث أن نكص على عقبيه وعاد من حيث أتى. كان يسير وهو مطرق الرأس، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، إلى أن رفع رأسه بغتة، كان أحداً قد ناداه باسمه، ورأى نفسه أمام منزل العجوز.

وانبلج له خاطر فجائي، وسمع أصواتا تنبعث من الداخل، وعلى الرغم من أنه لم يكن يتوقع ذلك إلا أن تردده لم يدم طويلا، فنفذ من الباب ودخل الشقة بخطوات ثابتة. كانت الغرفة الأولى خالية من كل شيء، ولمح رجلين يعملان في طلاء الجدران، وبدا له المكان غريبا بغير الأثاث، وبغير الجثتين، فقصد إلى النافذة وجلس على حافتها، وعقد ساعديه فوق صدره وراح ينظر حوله في سأم.

وبعد قليل وثب من مكانه إلى الغرفة المجاورة التي كانت العجوز تضع فيها نقودها وودائعها، وكان العاملان قد شعرا به ولم يكترثا له، فلما نفذ إلى تلك الحجرة منعه أحدهما وسأله:

- ماذا تريد؟

فلم يجبه روديون، وسار إلى الباب الخلفي وجذب حمل الجرس مرتين أو ثلاثا، وراح يصغي إلى صدى الرنين ويفكر، فصاح به العامل مرة أخرى:

- ماذا تريد؟

- أريد استئجار هذه الشقة، وقد جئت لفحصها.

- إن الناس لا يستأجرون المنازل ليلا، ولكن لماذا لا تذهب لنتحدث إلى البواب؟

- لقد غسلت أرض الحجرة، أليس كذلك؟ أين الدماء؟

- الدماء؟

- نعم، دماء العجوز وشقيقتها، لقد كانت هنا بحيرة من الدماء.

- من أنت؟

- هل تريد أن تعرف من أكون؟ تعال معي إلى البواب وهناك أقول لك من أنا.

- حسنا، هلم بنا، لقد فرغنا من عملنا.

ثم نادى زميله بقوله:

- هلم بنا يا إليشكا.

وهبط ثلاثتهم السلم فوجدوا البواب واقفا بالباب وعلى مقربة منه ثلاثة أو أربعة أشخاص يتسكعون ويرقبون المارة، وقال له روديون:

- أيها البواب.

- ماذا تريد؟

فصمت روديون واستغرق في التفكير فقال العامل:

- لقد صعد هذا الشاب إلى الشقة التي نعمل فيها وتفقدها ثم مضى إلى الباب وراح يدق الجرس بعنف، ثم سألنا لماذا أزلنا آثار الدماء وطلب إلينا أن نرافقه إلى هنا.

فتحول البواب إلى روديون وسأله في ضجر:

- من أنت يا سيدي؟

- اسمي روديون رومانوفتش راسكوليسكون وأقيم بالمنزل رقم ١٤ بشارع تشيل.

- ولماذا تتفقد الشقة؟

فصمت روديون وهتف البواب:

- لماذا لا تجيب، اغرب عن وجهي إذن ما دمت لا تريد الإفصاح عن غرضك.

وقع بصره في نهاية الشارع على مركبة وقفت في منتصف الطريق والناس يهرولون نحوها في حركات سريعة تنم عن الجزع، ورأى شرطيين يجتازان الشارع بسرعة إلى حيث المركبة والجمع الذي احتشد حولها، وأثار هذا المنظر فضوله، فترك البواب وسار نحو المركبة.

الفصل السادس

وجد الزحام مُنتشرا بالطريق الذي يسير فيه؛ فشق روديون طريقه بين الجموع لاستطلاع سبب الزحام فرأى رجلاً مُلقى على الأرض فاقد الرشد والدم يسيل من فمه، ولم يكن ثمة شك في أن الجوادين لطما الرجل وألقيا به تحت عجلات المركبة، وسمع صاحب العربة يقول مُلتمساً الأعذار:

- كُنت أقود المركبة بحذر شديد، ولكن هذا الرجل كان ثملاً فلم ير أضواء المصابيح وقد لمحته يجتاز الطريق ويقترب من الجوادين مُترنحا فصرخت به محذرا، ولكن بعد فوات الوقت.

وأمن على حديثه بعض الواقفين ولم يكن بينهم من يعرف المصاب فشرع الشرطي في اتخاذ الإجراءات لنقله إلى المستشفى، وفي تلك اللحظة كان روديون قد شق طريقه ووصل إلى الصف الأول فرأى وجه المصاب على ضوء المصباح وعرفه في الحال وهتف صائحا:

- إنني أعرف الرجل حق المعرفة، فهو سكير عربيد وله زوجة وأطفال، لا تذهبوا به إلى المستشفى بحق السماء، احملوه إلى بيته وسأدعو له طبيباً وأدفع له أجره.

ولم يعترض الشرطي وتقدم اثنان أو ثلاثة من ذوي المروءة وتعاونوا على حمل المصاب وساروا به تحت إرشاد روديون الذي هتف:

- إن منزله قريب من هنا، في هذا الزقاق، ها قد وصلنا، إنني شاكر لكم سأدفع أجركم بسخاء.

كانت كاترين إيفانوفا عليلة كالعادة، بل وقد اشتدت بها العلة في الأسبوع الأخير وكانت في ذلك المساء تسير في الغرفة جيئة وذهابا وتتحدث بين الفينة والفينة إلى ابنتها (بولنيكا) التي شرعت في تجريد أختها الصغرى من ثيابها بينما كان شقيقها الصغير ينتظر دوره للتخلص من أسماله البالية.

وفتح الباب ودخل الرجل وبين أيديهم جثة مارميلادوف وسأل أحدهم:

- أين نضعه؟

فأجابه روديون:

- فوق هذا الفراش، نعم، ضعوا رأسه هكذا.

وقال أحد الفضوليين الذين تبعوا المصاب إلى باب غرفته:

- لقد صدمته إحدى المركبات وهو ثمل كعادته.

وسمعت كاترين هذه العبارة ففر لونها وتحشرجت أنفاسها وذعر الأطفال وقال لها روديون:

- لا تنزعجي بحق السماء إن إصابته طفيفة، كان يعبر الطريق فصدمته مركبة، إنه سيشفى.

فصاحت:

- إنه لن يشفى.

وأسرعت إلى زوجها، وأدرك روديون في الحال أنها ليست من أولئك النساء اللاتي يفقدن الرشد إذا رأين فأراً، فقد نشطت للعمل في الحال، فوضعت وسادة تحت رأس زوجها وشرعت تحل أزار ثوبه، فقال لها روديون:

- لقد أرسلت في طلب طبيب، وسأدفع أجره، ألا يوجد ماء؟ أعطيني وعاء ماء وقطعة من قماش، يجب أن أغسل الجرح، إنه مصاب، ولكنه لم يمت.

وهرولت تلبي طلبه، وكانت التعسة أحوج إلى المعونة والمساعدة من زوجها، وقالت لابنتها:

- بولنيكا، أسرعي إلى سونيا، وقولي لها أن تأتي على عجل.

وفتح مارميلادوف عينيه ونظر إلى روديون ولكنه لم يعرفه وانحدر من فمه سيل رفيع من الدم، ورمقته زوجته بنظرة حادة ولكن الدموع كانت تسيل من عينيها في هدوء، قالت:

- يا إلهي، انظر إلى صدره المهشم، انظر إلى الدم.

وعرف مارميلادوف زوجته وغمغم بصوت أجش:

- أريد قسا.

فسارت كاترين إلى النافذة، وألصقت جبهتها الملتهبة بالزجاج البارد وهتفت:

- يا للشقاء.. يا للحياة التعسة!

وفي هذه اللحظة وقع بصره على طفلة الصغير، وكان أحب أطفاله إليه فانبعثت من صدره آهة عميقة وغمغم وهو يومئ إلى الطفل العاري:

- إنه عاري القدمين..

فصرخت كاترين:

- صه، يجب ألا تعلم لماذا هو عاري القدمين.

ووصل الطبيب فكشف عن صدر المصاب وفحصه ولم يلبث أن قال لروديون:

- إنه يحتضر، في استطاعتي أن أمنع نزيف الدم، ولكنه سيموت بعد

خمس دقائق على الأكثر.

وحدثت في هذه اللحظة حركة غير عادية ورأى روديون الناس يُفسحون السبيل لقس عجوز أشيب شعر الرأس، فأفسح له الطبيب مكاناً بجانب الفراش وهو ينظر إليه نظرة ذات معنى، وبدأ القس مهمته وشرع يبارك الرجل المحتضر. وضمت كاترين طفليها إلى صدرها وجثت على ركبتيها وراحت تبتهل وتعض على شفتيها لتمنع نفسها من البكاء، ولم تلبث أن أقبلت طفلتها بولنيكا تعلن وصول سونيا.

ودخلت على الأثر فتاة في مقتبل العمر تبدو على وجهها الجميل علامات الحزن والخجل والانزعاج، كانت ترتدي ثوبا رخيصا ولكنه شفاف زاهي اللون، وكان منظرها عجيباً في تلك الغرفة الحقيرة التي يرفرف عليها ملك الموت. ونهض القس وتأهب للانصراف وتقلص وجه مارميلادوف وظهرت عليه علامات الألم ولم يلبث أن استقرت أنظاره على وجه سونيا فأخذ يبذل مجهودا عظيما حتى استطاع أن يستوي جالسا، كل ذلك وهو لا يحول عينيه عن وجه ابنته، وكان من الواضح أنه لم يرها قبلا في ذلك الزي، عرفها وصرخ:

- سونيا ابنتي اصفحي عني.

وحاول أن يبسط إليها يده فخانته قواه وسقط جسمه على الفراش وتدلى رأسه حتى أوشك أن يمس الأرض، وهنا صاحت سونيا صيحة ألم خافتة، وأسرعت إلى أبيها وضمته إلى صدرها فأسلم الروح بين يديها.

قالت كاترين وهي تنظر إلى الجثة:

- لقد مات، فماذا العمل الآن؟ وكيف أواريه التراب؟ وكيف أجد قوتا للأطفال؟

فاقترب منها روديون وقال:

- أصغي إليَّ يا كاترين إيفانوفا، لقد سرد علي زوجك في الأسبوع الماضي قصة عائلته الصغيرة، وأؤكد لك أنه لم يذكرك إلا باحترام، على أن قصته دلتني على مبلغ حبه لعائلته رغم ضعفه وخضوعه لسلطان الخمر، وقد أحببته لأنه يحب عائلته، فاسمحي لي أن أشاطرك شعوري نحوه، إليك خمسة وعشرين روبلا قد تفيدك في هذا المأزق، إنها كل ما أملك في الوقت الحاضر، ولكني سأعود إليك غدا بغير شك، فإلى اللقاء.

وإذ هم بالانصراف من الباب إذا به يجد نفسه وجها لوجه أمام الضابط توميتش الذي جاء للتحقيق في الحادث واستجواب الشهود، وقد عرفه توميتش في الحال وهتف به:

- أنت.. أنت هنا؟

- إنه أسلم الروح، وقد دعوت له طبيباً وقساً فأرجوك ألا تزعج زوجته المسكينة، إنها أيضاً على أبواب القبر فرفه عنها إذا استطعت، أنا أعلم أنك رجل طيب القلب.

- إنك ملوث بالدماء.

فارتسمت على وجه روديون ابتسامة خاصة وقال:

- نعم، إنني ملوث الثياب بالدم.

واصل سيره في هدوء، وما كاد يبلغ الباب الخارجي حتى لحقت به الطفلة بولينكا وسألته اسمه وعنوانه فقال لها:

- من الذي بعث بك في أثري؟

- أختي سونيا.

- هذا ما ظننته، هل تحبينها؟

- أجل، أكثر من أي إنسان آخر في الوجود.

فصمت قليلا ثم سأل الطفلة:

- هل تعلمت الصلاة والابتهال يا بولينكا؟

- نعم، قد تعودنا جميعا أن نبتهل من أجل أبي، ثم صرنا نبتهل من أجل سونيا.

- إن اسمي روديون، فمتى ابتهلت إلى الله فابتهلي من أجلي كذلك واسألي الله أن يغفر لي.

- سأبتهل إلى الله طول حياتي أن يغفر لك ويباركك.

فربت على خدها وذكر لها اسمه وعنوانه ومضى في سبيله وهو يشعر بارتياح لم يشعر بمثله منذ شهر، لم يعرف كيف نبت هذا الشعور، ولكنه قرر أن يجب أن يعيش، وانتبه فجأة فإذا به يسير أمام منزل بركوفتش، لماذا لا يقابل هذا الصديق الكريم ويعتذر له، ويستمد من صداقته قوة لاحتمال الحياة؟

طرق الباب ففتحه بركوفتش بنفسه وكان هو وأصدقاؤه يشربون ويعبثون.

- لقد جئتك لكي لا تتوهم أنني جاحد ناكر للجميل، ولكني لا أستطيع البقاء لأنني ضعيف خائر القوى، إلى اللقاء، سأنتظرك غدا.

- إذن دعني أرافقك إلى غرفتك ما دمت ضعيفا.

وكان يبدو على بركوفتش أنه أفرط في الشراب، وقد لاحظ روديون ذلك فقال:

- بل يحسن بك أن تبقى مع أصدقائك.

- كلا، سأرافقك.. الآن عندي ما أريد أن أقوله لك.

ثم استطرد وهما يهبطان السلم:

- هل تعلم ماذا قال لي زوسيموف؟ ليكن ذلك سرا بيننا، إنه يعتقد أن بك مسا من الجنون، وقد وجد في الحديث الذي دار بينك وبين زيمتوف ما يؤيد اعتقاده.

- هل ذكر لكم زيمتوف تفاصيل الحديث؟

- نعم، إنه أحد ضيوفي الليلة، هل تعلم أن أولئك الأوغاد – ولا سيما – إيليا بروكوف – كانوا يتوهمون أن لك صلة بمقتل العجوز، إنهم لم يفصحوا عن شكوكهم إلا أخيرا بعد أن ألقي القبض على نيكولا وثبت لهم فساد ظنهم بك، إن الإغماء الذي أصابك في مكتب البوليس هو الذي أثار ريبتهم فيك.

وكان روديون يصغي باهتمام شديد فقال:

- لقد أغمي علي لفساد جو المكان، ولشدة الحرارة.

- ربما، ولكن يوجد سبب آخر للإغماء، هو الحمى، لقد قال زوسيموف أن الحمى بدأت تجمع في جسمك منذ شهر. ولقد غرقنا في الضحك حين سمعنا من زيمتوف كيف استطعت إدخال الرعب على نفسك، وقد عبر برفيريوس عن رغبته في التعرف إليك، هل تعرف برفيريوس؟ هو من أقربائي، وهو الذي يتولى التحقيق في جريمة العجوز.

- وما الذي حملهم على الاعتقاد بأنني مجنون؟

- إن أحداً منهم لم يتهمك بالجنون، ولكنهم يعتقدون أنك غريب الأطوار.

وصمت روديون لحظة، ثم قال فجأة:

- دعني أعتمد على ساعدك، إنني أكاد أسقط على الأرض.

فصاح بركوفتش في جزع:

- ماذا بك؟

- لقد أصابني دوار، ولكن انظر، ألا ترى ضوءا في غرفتي؟

- هذا عجيب، اللهم إلا أن تكون أنستاسيا قد دخلت غرفتك أثناء غيابك.

- كلا، كلا، إنها لا تدخل غرفتي أثناء غيابي، وداعا يا صديقي.

- ماذا تعني؟ يجب أن أرافقك إلى غرفتك..

- نعم، نعم، سترافقني إلى غرفتي، ولكن أريد أن أقول لك كلمة وداع قبل أن تصل إلى الغرفة.

- يا إلهي.. ماذا أصابك يا روديون؟

- لا شيء، سترى بعيني رأسك.

وصعد بركوفتش إلى السلم مع صديقه وهو يقول لنفسه:

- ترى هل كان زوسيموف على حق؟

ووصلت إلى آذانهما أصوات منبعثة من جوف الغرفة، فهجم روديون على الباب وفتحه بمزيج من الجرأة والغضب، رأى أمه وأخته جالستين على الأريكة.

وظل روديون جالسا في مكانه كأنه تمثال، كان قد استولى عليه شعور مبهم بأنه سيجد رجال البوليس في انتظاره.

أراد أن يتحرك ليستقبل أمه وأخته وقد وثبتا نحو وأفلتت منهما صيحة سرور، ولكنه ترنح وسقط على الأرض فاقد الوعي.

القسم الثالث

العقاب

الفصل الأول

بعد أن أفاق، رفع روديون رأسه عن الوسادة وأمسك بيدي أمه وأخته ونظر إليهما طويلا وارتسمت على وجهه علامات الحزن والقلق، ثم قال محدثا بركوفتش:

- اذهب بهما إلى منزلهما يا بركوفتش إذ يبدو عليهما تعب السفر، ولكن متى وصلتما؟

فأجابت أمه:

- وصلنا إلى سان بطرسبرج منذ ساعتين وقصدنا إلى هنا في الحال، وقد استحوذ علينا القلق عندما علمنا بخروجك على الرغم من مرضك، ولذا يجب أن أبقى بقربك.

فقاطعها بحدة وفراغ صبر:

- لا تضايقيني، إنني لا أريد أحدا هنا، اذهبوا جميعكم

فهمهمت دونيا في قلق:

- فلنذهب يا أماه، يخيل إلي أن وجودنا يضايقه.

فقال روديون:

- هل قابلتما لوشن؟

- كلا يا بني، ولكنه علم بقدومنا وقد ذكر لنا صديقك هذا أن لوشن كان من كرم الخلق بحيث زارك هنا اليوم.

- نعم لقد كان ذلك من كرم الخلق، أصغي إلى يا دونيا.. إنني أفهمت لوشن أن في نيتي أن أقذف به من النافذة وطلبت إليه أن يذهب إلى الشيطان.

فصاحت الأم في ذعر:

- ماذا تعني يا ولدي، لا شك أنك لم تفعل ذلك.

- إنني لن أسمح بهذا الزواج، وإذا جاء لوشن لزيارتك غدا يا دونيا فاطرديه، ولا تدفعيني أسمع باسمه مرة أخرى.

فهتفت الأم:

- يا إلهي.

وقالت دونيا:

- لا شك أنك لست في وعيك الآن يا روديون، هل أنت متعب؟

- أتعتقدين أنني أهذي؟ إنني أعلم أنك لا تريدين الاقتران بهذا الرجل

إلا من أجلي. ولكنني لا أقبل هذه التضحية، فاكتبي إليه غدا بإلغاء الخطبة، ودعيني أقرأ خطابك قبل أن تبعثي به إليه.

فصاحت الفتاة:

- ليس في استطاعتي أن أفعل ذلك، أي حق..

فقاطعتها أمها:

- رفهي عنك يا دونيا، ودعي هذه المسألة للغد، ألا ترين أنه مريض؟ هلمي بنا نذهب، ذلك أفضل ما نستطيع أن نفعله.

الفصل الثاني

انصرفت المرأة وابنتها وهما في أشد حالات الانزعاج ورافقتهما بركوفتش وحده، وعندما ذهبت الأم وابنتها لزيارة روديون في اليوم التالي وجدتا بركوفتش راقدا أمام باب الغرفة كالكلب الأمين.

وكان روديون في ذلك اليوم في حالة نفسية سيئة، فرحب بأمه وأخته، وقال على سبيل الاعتذار عن سلوكه في اليوم السابق: إنه كان حزينا منفعلا بسبب مأساة مارميلادوف، وقص عليهما قصة ذلك الرجل التعس.

قالت دونيا وهي تبتسم:

- لقد بلغ من انزعاجنا أمس أن والدتي رسمت علامة الصليب على صدرها قبل أن تدخل غرفتك اليوم.

فأجاب روديون:

- إنني على استعداد للاعتذار عما حدث، ولكني ما زلت عند رأيي في مسألة زواجك من لوشن،

فأجابته الفتاة بلهجة باردة كلهجته:

- أصغ إلي يا أخي، يخيل إلي أن بيننا سوء تفاهم قائما على فساد في التقدير من ناحيتك، لقد فكرت في الأمر مليا ليلة أمس، وعرفت خطاك، فأنت تعتقد أنني أقدم على هذا الزواج تضحية في سبيلك، ولكن ذلك غير الواقع، فأنا أهتم بمصلحتي قبل كل شيء، وطبعا يسرني أن تفيد أنت كذلك من هذا الزواج، ولكن هذه الفائدة التي أرجوها لك لا تؤثر على وجهة نظري.

- أنت لا تذكرين الحقيقة يا أختاه، إنني قابلت لوشن وتحدثت إليه وأعتقد أنه إنسان متعجرف مغرور لا يمكن أن يكون قد نال إعجابك وتقديرك، فزواجك منه إذن هو زواج منفعة، انظري كيف احمرت وجنتيك.

- إنني لا أكذب، وأؤكد أنني لا أقترن به إذا كنت لا أقدره ومن حسن الحظ أنه سيكون في مقدوري اليوم أن أصدر عليه حكما نهائيا، هذا الزواج لا يقوم على منفعة كما تزعم يا أخي، وإذا صح أنه يقوم على منفعة، فإن من القسوة أن تصارحني بذلك، لأنه إذا كان هناك إنسان سيتألم ويشقى بهذا الزواج، فأنا ذلك الإنسان، ومن التعسف إذن أن تتحدث عن هذا الزواج كما لو كنت قد قتلت إنسانا، لماذا تنظر إلي هذه النظرة المخيفة؟ لماذا امتقع وجهك يا روديون، يا عزيزي روديون.

وصاحت الأم:

- يا إلهي.. ستصيبه نوبة إغماء كما حدث أمس، انظري إلى ما فعلت يا دونيا.

- دعيه يقرأ رسالة لوشن يا أماه.

فأخرجت الأم من صدرها رسالة قدمتها إلى روديون فتناولها بأصبع ترتجف وقرأ فيها ما يلي: "سيدتي، يؤسفني أن أعمالا مهمة أعاقتني عن انتظاركما بالمحطة، ولكنني واثق من أنني سأتمكن من الاجتماع بكما في بيتكما في الساعة الثامنة من مساء غد، وأن أبعث لك بهذه الرسالة لأقول لك أنه ليس من مصلحة أحد أن أجد ابنك روديون رومانوفتش في منزلك أثناء هذه الزيارة، فقد أهانني هذا الفتى إهانة لا تغتفر عندما ذهبت اليوم إلى غرفته للاستفسار عنه.

وسيتناول حديثنا غدا مسائل يجب أن يتم الاتفاق عليها فيما بيننا، ولكني أنذرك بأنني سأنسحب توا إذا التقيت بابنك في منزلك، ويكون الذنب عندئذ ذنبك، وأقول لك ذلك لأنني أعلم أن روديون وإن يكن مريضا إلا أنه قد يسترد قوته ويبرح غرفته في أي لحظة، كما حدث اليوم، والواقع أنني تركته في الصباح طريح الفراش، ثم رأيته مصادفة في منزل رجل عربيد قتلته إحدى المركبات، ولاحظت أنه نقد ابنة هذا الرجل – وهي فتاة ذات سمعة معينة – مبلغ خمسة وعشرين روبلا، وأدهشني هذا التصرف لأنني أعلم مبلغ الضيق الذي تعانينه والصعوبة التي تحصلين بها على مثل هذا المبلغ".

قرأ روديون هذه الرسالة وأعاد تلاوتها وتوقع الجميع أن ينفجر شاتما صاخبا، ولكنه لم يفعل ذلك بل دفع بالرسالة إلى بركوفتش وهو يقول:

- إنك رأيت الرجل أمس فاقرأ اليوم رسالته.

ولكن بركوفتش لم يتناول الرسالة ورمق الأم وابنتهما بنظرة خاصة، فقالت دونيا:

- إننا أطلعناه عليها أمس عندما رافقنا إلى المنزل.

فنظر إليها روديون في دهشة، ثم تحول إلى بركوفتش، فاحمر وجه العملاق وأطرق برأسه. وأدرك روديون أن صديقه قد فاز منذ اللحظة الأولى بثقة والدته وأخته، فارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة احمر لها وجه بركوفتش مرة أخرى. قال روديون:

- الواقع أنني لا أستطيع أن أفهم هذه الرسالة، فالرجل مثقف ويشتغل بالمحاماة ولكن رسالته تتنافى مع مبادئ الأدب واللياقة. إن عبارة: يكون الذنب عندئذ ذنبك توضح معناها وتفصح عن غرضه، وتتضمن معنى التهديد بفسخ الخطوبة إذا لم تنزل على إرادته. وفسخ الخطوبة معناه أن يترككما في سان بطرسبرج بعد أن كبدكما نفقات السفر ومشقاته، وثمة عبارة أخرى لها معناها، انظروا إلى قوله: هي فتاة ذات سمعة معينة. إنني لم أر الفتاة إلا أمس، وهو طبعا لا يقصد من

الإشارة إليها الحط من قدري في نظركم. ورسالته بعد ذلك خالية من أية إشارة إلى دونيا ومن كلمة تقدير لها

فقالت الأم:

- وما رأيك الآن يا روديون؟

- ماذا تعنين؟

- أنت ترى أنه لا يريد أن يجتمع بك هذه الليلة، ويهدد بالانصراف في الحال إذا رآك، فماذا في نيتك أن تفعل؟

فالتفت روديون إلى أخته:

- الأمر متروك لكِ، وأنا على استعداد لقبول قرارك.

فقالت الأم:

- إن دونيا قد قررت وانتهى الأمر.

وقالت دونيا:

- إنني أشعر بأن وجودك في هذا الاجتماع ضروري يا روديون وأرجوك أن تحضر.

- سأحضر إذن، وسيحضر بركوفتش، أليس كذلك؟

الفصل الثالث

وقبل أن يتمكن بركوفتش من الإجابة فتح باب الغرفة، ودهش الجميع إذا رأوا أمامهم فتاة نحيفة الجسم ترتدي ثوبا رخيصا، ولكنه نظيف، ويلائم تقاطع جسمها الصغير.

وقفت الفتاة بالباب حائرة مترددة، ولم يتذكر روديون أنه رآها قبلا، ولكنه ما لبث أن عرف فهيا سونيا مارميلادوف ولكن يا إلهي كم تبدلت الفتاة.

لقد كانت أمس أشبه بالطاووس الساذج الذي لا يعرف كيف يختال في ريشه الكثير الألوان، أما الآن فإنها فتاة محتشمة خجول، تبدو على وجهها وفي حركاتها علامات الذلة والمسكنة. ولا شك أن سونيا لم تكن تتوقع أن تجد أولئك الزائرين لأنها ارتبكت وهمت بالانسحاب.

صاح روديون بصوت يدل على القلق:

- آه أهذا أنت؟

كان يقول لأمه وأخته أنه لم ير هذه الفتاة إلا أمس، ولم يحاول أن يدفع عنها ما اتهمها به لوشن حين قال أنها فتاة ذات سمعة معينة،

فكيف يفسر الآن وجودها؟ قال:

- لم أكن في الحق أتوقع وجودك، تفضلي بالجلوس، أنت قادمة من لدن كاترين إيفانوفا بغير شك.

فجلست سونيا على المقعد الذي أفسحه بركوفتش ونقلت عينيها بين الأم وابنتها في خجل وحيرة، ثم أطرقت برأسها وأجابت بلسان متلعثم:

- معذرة إذا كنت أزعجتكم، الواقع أنني جئت من لدن كاترين إيفانوفا لأسألك عما إذا كنت ستتفضل بالاشتراك في تشييع الجنازة.

- سأحاول الاشتراك في تشييع الجنازة إذا وجدت فسحة من الوقت، لماذا تريدين الانصراف بهذه السرعة؟ اجلسي فإن عندي كلاما أريد أقوله لك.

فطأطأت الفتاة، وجلست على طرف المقعد في خجل والتفت روديون إلى أمه وقال:

- يا أماه هذه هي سونيا مارميلادوف ابنة مسيو مارميلادوف المسكين الذي حدثتك عنه، وقلت لك أن مركبة قتلته أمس.

فنظرت الأم إلى سونيا في رفق، أما دونيا فإنها راحت تتأملها بإمعان من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. وتحركت الفتاة في مقعدها

بقلق، قال روديون:

- آمل ألا يكون رجال البوليس قد ضايقوكم أمس.

- كلا، لقد انتهى كل شيء بسلام، تفضل المبلغ الذي...

- أرى أنك تجيلين الطرف في أنحاء غرفتي..

والواقع أن الفتاة راعها ما رأت في الغرفة من مظاهر الفقر والبؤس، وأدهشها أن يتبرع روديون بذلك المبلغ الطائل الذي هو أحوج إليه من غيره.

همست الفتاة في صوت خافت:

- إنك أنكرت على نفسك أشياء كثيرة من أجلنا.

وارتجفت شفتاها كأنها تهم بالبكاء وساد صمت عميق، وأخيرا قالت الأم وهي تنهض:

- هلمي بنا يا دونيا.. سننتظرك هذا المساء يا روديون، ومن المسلم به طبعا أنك ستتناول معها طعام العشاء.

فأجاب بسرعة:

- نعم، نعم سأذهب إليك بغير شك، أتريد الانصراف كذلك يا بركوفتش كلا، لا أظن أن أمي وأختي بحاجة إليك الآن، ثم أنني أريدك لأمر.

وانصرفت دونيا وأمها ونهضت سونيا وهي تقول:

- هل أنبئ كاترين إيفانوفا أنك ستشترك في تشييع الجنازة؟

- صبرا لحظة، ستجدني في خدمتك بعد قليل.

وانتحى بركوفتش ناحية وقال له بصوت خافت:

- ماذا أردت أن أقول لك؟

ثم تذكر وهتف:

- آه أردت أن أسألك هل تعرف برفيريوس بتروفتش؟

فأجاب بركوفتش في دهشة:

- تعني قاضي التحقيق؟ قلت لك: إنه تربيتي، فهل تريده لأمر؟

- ألم تقل أمس أنه يقوم بتحقيق مقتل العجوز؟

- نعم، فأية غرابة في ذلك؟

- كذلك أذكر انك قلت أنه شرع في استجواب أصحاب والواقع. إنني أودعت عند العجوز في أحد الأيام خاتما أهدته لي أختي وساعة فضية ورثتها عن أبي، وثمن الخاتم والساعة لا يتجاوز خمس أو ست روبلات، ولكني أود الاحتفاظ بهما على سبيل التذكار، وقد كنت أرتجف منذ لحظة خوفا من أن تتفقد أمي الساعة فلا تجدها معي

ويحتمل أن تستفسر عنها عندما أذهب لزيارتها في المساء، فماذا يجب أن أفعل الآن، هل أكتب للبوليس؟

فصاح بركوفتش:

- كلا.. لا تذهب إلى البوليس على الإطلاق وأجدر أن تذهب إلى برفيريوس نفسه، ومن حسن الحظ أنني أستطيع أن أرافقك إليه الآن إذا شئت. وإذن فقد كنت تعرف إيلينا إيفانوفا؟ هذا من حسن الحظ.

فقال روديون بصوت مرتفع:

- فلنذهب الآن.

ثم التفت إلى سونيا وقال:

- معذرة يا آنسة، أظن أني يجب أن أنصرف الآن لقد كان بودي أن أتحدث إليك، ولكن لا بأس، سأزورك في منزلك اليوم إذا ذكرت لي عنوانك.

الفصل الرابع

الطريق طويل، وشعر بركوفتش بارتياح عظيم وهو يسير مع صديقه جنباً إلى جنب إلى منزل برفريوس بتروفتش قاضي التحقيق وقال:

- لشد ما سرني أن أعلم أنك كنت على صلة يا إيلينا إيفانوفا، متى قابلت هذه العجوز لآخر مرة؟

- لماذا تسأل؟ إنني قابلتها قبل مصرعها بيومين على ما أذكر.

فتنهد بركوفتش بارتياح وقال:

- ذلك يفسر أشياء كثيرة أزعجتني وحيرتني، هل تعرف أنك كنت في مرضك تهذي بذكر السلاسل الذهبية والأقراط والحلي؟ إن صلتك بهذه المرأة وحادث مصرعها كل ذلك يفسر معنى الكلمات التي كنت تردده في هذيانك.

حبس روديون أنفاسه. إذن فقد كان يهذي بذكر الحلي التي سرقها من بيت العجوز، سأل:

- هل أنت واثق من أننا سنجد برفيريوس في بيته؟

- نعم، إنه لا يبرح منزله إلا قليلا، ولكن ثق أنه رجل طيب المعشر، ولا عيب فيه إلا شغفه بأن يحيط نفسه بجو من الغموض، لقد قال لي: إنه شديد الرغبة في التعرف بك.

- لماذا؟

- لا شيء، أكبر الظن أنه شعر بهذه الرغبة عندما سمعنا نتحدث عنك، وقد علم أنك تدرس القانون في الجامعة، ثم اضطررت إلى الانقطاع عن الدرس، فأسف لذلك كثيرا، هو ذا منزله.

فقال روديون لنفسه:

- المهم الآن أن أعرف مبلغ ارتياب برفيريوس في أمري، وهل علم بذهابي أمس إلى منزل العجوز واستفساري عن الدماء، أو لم يعلم

ثم قال بصوت مرتفع، وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة:

- هل تعلم يا صديقي أنك مضطرب اليوم لم أرك في أي يوم مضى؟

- مضطرب؟ ولماذا؟ لا أفهم ماذا تعني؟

- لقد صعدت حمرة الخجل إلى خديك ثلاث مرات على الأقل أثناء وجود أمي وأختي في غرفتي واضطربت مرارا تحت نظرات دونيا، وها هو وجهك يحمر مرة أخرى.

فقال بركوفتش وهو يزمجر:

- إنك مخلوق لا تحتمل.

- ولماذا الانزعاج يا عزيزي روميو.. ها.. ها ها، سوف تضحك أمي كثيرا متى ذكرت لها هذه الملاحظات، أنا واثق أنك ستعنى اليوم بهندامك أكثر مما عنيت في أي يوم مضى، إنك متى ذهبت معي إلى والدتي هذا المساء..

فقاطعه بركوفتش:

- تبا لك، إذا لم تكف عن هذا المزاح الثقيل بطشت بك.

وكان روديون لا يزال يقهقه ضاحكاً وهو يرتقى درج السلم، كان يأمل أن يسمع برفيريوس قهقهته.

واستقبلهما قاضي التحقيق في غرفة أنيقة ذات أثاث فاخر ووقع بصر روديون في ركن الغرفة على زيمتوف فامتقع لونه. قال لنفسه:

- ماذا جاء بهذا التعس إلى بيت المحقق؟

كان برفيريوس رجلا متوسط القامة حليق الوجه قصير شعر الرأس، يناهز الخامسة والثلاثين من عمره، ولا يبدو في مكانه أو نظراته شيء من العنف الذي اشتهر به، وقد رحب قاضي التحقيق بالصديقين، وقال

بركوفتش يقدم صاحبه:

- **دعني أقدم لك صديقي روديون رومانوفتش راسكونيكوف، إنه سمع عنك ويريد التعرف بك، ثم أن له مسألة يريد أن يستفسر عنها.**

- **هاللو زيمتوف، ماذا جاء بك إلى هناك يا رجل؟**

وتمنى روديون لو يستطيع إرجاء الحديث في حضرة زيمتوف، ولكن بركوفتش وضعه أمام الأمر الواقع بأن تحدث إلى برفيريوس في الحال بالغرض من تلك الزيارة.

قال برفيريوس محدثا روديون:

- **في هذه الحال يجب أن تتصل برجال البوليس، لكي يردوا إليك الحلي التي أودعتها عند إيفانوفا.**

فقال روديون:

- **من سوء الحظ أنني لا أملك في الوقت الحاضر المبلغ الذي أدين به لتلك العجوز وقد دفعت إليها أرباح الدين قبل مصارعها بيومين وكل ما أريده الآن هو ألا يتصرف أحد من رجال البوليس في ودائعي، إن الودائع تافهة من الناحية المادية، ولكني أحتفظ بها لقيمتها التذكارية.**

فقال بركوفتش مُحدثاً صديقه:

- أمن أجل هذا انزعجت أمس حين قال لك أن برفيريوس ينوي استجواب أصحاب الودائع؟

فعض روديون على شفته وقال في سره:

- قبحا لهذا المغفل.

قال بصوت مرتفع:

- إنني أشفقت أن تتفقد والدتي ساعة أبي فلا تجدها معي.

قال برفيريوس:

- هل تعلم أنني كنت أتوقع قدومك بين لحظة وأخرى.

فمرت في جسد روديون رعدة قوية، وهتف بركوفتش:

- كنت تتوقع قدومه؟

فلم يجبه برفيريوس، بل استطرد:

- إنك أودعت عند العجوز خاتما من الذهب وساعة من الفضة أليس كذلك؟

- نعم ... نعم.

ثم قال لنفسه: "ما أقوى ذاكرة هذا الشيطان!"

قال برفيريوس:

- الواقع أن جميع أصحاب الودائع جاءوا لمقابلتي والاستفسار عن ودائعهم، أنت وحدك الذي لم يحضر، ولذلك كنت أتوقع قدومك بين وقت وآخر.

فتنهد روديون بارتياح وقال:

- إنني كنت مريضا في الأيام الأخيرة.

- ذلك ما علمته ويخيل إلي أنك ما زلت مريضا، فأنت شاحب اللون.

فأجاب روديون بحدة:

- كلا لست شاحب اللون، إنني الآن في خير حال.

- ربما كنت على حق، والواقع أن تومیتش ذكر لي أنه رآك بالأمس في منزل رجل قتلته إحدى المركبات.

قال بركوفتش:

- هذا صحيح، وقد فعل أمس ما يفعله المجانين أمثاله، فترك كل نقوده للأرملة وخرج خاوي الوفاض.

فقال برفيريوس فجأة:

- هل تعلم يا مسيو روديون أنني كنت أريد التعرف إليك منذ وقت طويل؟ إن مقالك عن (فن الإجرام) أثار اهتمامي إلى حد بعيد، لقد قرأت هذا المقال منذ شهرين في (المجلة الحديثة).

فهتف روديون في دهشة:

- مقالي؟ في المجلة الحديثة؟.. الواقع أنني كتبت مقالا بهذا العنوان منذ ستة شهور وبعثت به إلى (المجلة الأسبوعية)، ولكن هذه المجلة اختفت قبل أن تنشر مقالي.

- المجلة الأسبوعية انقطعت عن الصدور لأنها أدغمت في (المجلة الحديثة) وهذا هو السبب في أنني قرأت مقالك في المجلة الأخيرة، ألم تكن تعلم بأن المقال نشر؟

- كلا.

فصاح بركوفتش:

- إذن فأسرع إلى إدارة المجلة واطلب أجر المقال، أنت تعيش عيشة النساك الزاهدين، وتهمل مصالحك.

فقال روديون محدثا برفيريوس:

- ولكن كيف علمت أنني صاحب هذا المقال؟ إنني أطلب من المجلة ألا تنشر اسمي؟

- إن المجلة لم تنشر اسمك، ولكن رئيس التحرير صديقي، وقد ذكر لي اسمك بصفة خاصة، أنت تعلم أنني قاضي تحقيق، وأنني يهمني الوقوع على كل دراسة جديدة في فن الإجرام، والواقع أنك عالجت هذا الموضوع من ناحية لم يسبقك إليها سابق

- أذكر أنني عالجته من الناحية النفسية وحاولت أن أصور حالة المجرم ساعة ارتكاب الجريمة

- نعم، وقد أثبت أن المجرم يكون في حالة جنون وقتي وهو يرتكب جريمته على أنني لم أهتم بهذه النظرية كما اهتممت بنظرية أخرى من سوء الحظ أنك مررت بها بسرعة وعالجتها في اختصار، فقد ذكر لي مقالك أن هناك أشخاصا من حقهم أن يرتكبوا ما شاءوا من الجرائم.

فلاحظ روديون ما في هذه العبارة من مسخ للنظرية التي قال بها، وابتسم وأجاب:

- كلا.. إنني لم أقرر حق إنسان في خرق القانون، وارتكاب الجرائم، وأنا ذكرت أن المجتمع ينبت في بعض الأحيان رجالا أقوياء ذوي شخصيات جارفة، يرون من حقهم ألا يتقيدوا بأحكام القانون، فهم لا يحجمون عن ارتكاب جريمة القتل إذا كان ارتكابها يخدم المبدأ

الذي ينادون به لمصلحة الإنسانية والهيئة الاجتماعية. انظر مثلا إلى المشرعين والمصلحين منذ أقدم عصور التاريخ إلى عهد نابليون، هؤلاء المصلحون كانوا جميعا مجرمين، لأنهم خرقوا التقاليد والقوانين القديمة المصطلح عليها لكي يفرضوا قوانينهم الجديدة التي يرونها أصلح للمجتمع وأجدى عليه، وهم بغير شك ما كانوا يحجمون عن سفك الدماء وارتكاب أية جريمة إذا وجدوا أن ذلك يحقق أغراضهم لخير المجتمع. إليك نابليون مثلا، إنه كان يؤدي رسالة إنسانية، وقد خرب الديار وفتك بملايين البشر، وأحرق موسكو، فهل تعتقد أنه كان يحجم على ارتكاب جريمة قتل عادية إذا شعر بأنه بارتكابها يحقق أغراضه ومراميه؟.. إن الناس على نوعين: أناس عاديون وأولئك هم المحافظون الذين يحترمون التقاليد والقوانين، وأناس غير عاديين يخرقون القوانين، ويرتكبون الجرائم متى وجدوا أن في استطاعتهم أن يفعلوا ذلك، وأهمية هذه الجرائم تتفاوت باختلاف المطامع والأغراض.

فقال برفريوس:

- لقد بهت الآن من وجهة نظرك في الجريمة وحق الإنسان في ارتكابها. وإذن لو توهم إنسان أنه يؤدي خدمة للمجتمع ووجد أن القتل يحقق الخدمة فهل يصبح من حقه أن يقتل؟

فصمت روديون، وقد لاحظ مرة أخرى أن برفيريوس يتعمد تشويه آرائه

قال برفيريوس:

- هل تقدم أنت على ارتكاب جريمة قتل إذا وجدت أن ارتكابها يحقق غرضا ساميا ينفع المجتمع؟ أو بمعنى آخر إذا شعرت بأنك من أولئك الأفذاذ الذين ينبتهم المجتمع من وقت لآخر لأداء رسالة إصلاح، ثم وجدت عقبة في سبيل مستقبلك وأن هذه العقبة لا تزيلها إلا الجريمة، فهل ترتكب هذه الجريمة لتشق طريقك إلى المستقبل وتؤدي رسالتك؟

فرمق روديون محدثه بارتياب، قال لنفسه:

- يا له من رجل خبيث، لقد نصب له شركا بلباقة ومهارة.

وأجاب بصوت مرتفع:

- أرجو المعذرة، إنني لا أعتبر نفسي مصلحا، أو نابليون، ولذا لا أجد في مقدوري أن أجيب على سؤالك.

فقال برفيريوس ببساطة:

- وأي إنسان في هذا العالم لا ينظر إلى نفسه كأنه نابليون.

فضحك زميتوف فجأة وقال:

- إذن فقاتل إيلينا نوفنا لا بد وأن يكون نابليونا صغيرا سوف يدهشنا بأعماله في المستقبل؟

فلم يجب روديون وتناول قبعته. قال برفيريوس بلطف:

- ماذا تفعل؟ هل تنوي الانصراف بهذه السرعة؟ لقد سرني في الحق أن أعرفك وأتحدث إليك، أما فيما يختص بالمسألة التي جئت من أجلها فحسبك أن تكتب طلبا تذكر فيه ودائعك. اكتب هذا الطلب وجئني به غدا، يهمني كثيراً أن أجاذبك أطراف الحديث، سيما وقد كنت من آخر الذين قابلوا العجوز قبل مصرعها، ومن المحتمل أن أجد عندك بعض المعلومات الهامة، فسأله روديون في قلق: وهل في نيتك أن تستجوبني بصفة رسمية

- ولماذا؟ إن ذلك لم يخطر لي ببال، ولكنني أبذل قصارى جهدي في تحقيق هذه القضية، والكشف عن القاتل ولقد استجوبت جميع أصحاب الودائع بأمل الوقوف على كلمة واحدة أسترشد بها في التحقيق، وبهذه المناسبة..

وتحول إلى بركوفتش وقال له:

- أنت كنت تناقشني بحدة منذ أيام وتحاول أن تثبت لي براءة نيكولا، أنا واثق أنه بريء، ولكن ما العمل، والأدلة المادية كلها تدينه؟

ثم التفت إلى روديون وقال:

- دعني ألقي عليك سؤالا يا سيدي: عندما صعدت السلم إلى شقة العجوز.. كلا.. حدثني أولا.. ألم تكن تلك الساعة بين السابعة والثامنة عندما دخلت منزل العجوز؟

فأجاب روديون:

- نعم.

ولكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمة حتى ندم عليها. قال برفيريوس:

- ألم تلاحظ وأنت تصعد السلم، وتمر بالطابق الثاني، لقد كان باب الشقة في ذلك الطابق مفتوحا أليس كذلك؟ ألم تلاحظ عندئذ وجود عاملين، أو عامل واحد على الأقل في تلك الشقة؟ إنهما كانا يشتغلان بطلاء الجدران، ومن المؤكد أنك رأيتهما، إن الأمر مهم جدا بالنسبة إليهما.

فردد روديون ببطء:

- عاملان يشتغلان بطلاء الشقة؟

وفكر، فكر بسرعة، ورأى الفخ المخيف الذي نصبه له المحقق، أجاب:

- كلا.. إنني لم أر أحداً، بل وأظن أن باب الشقة لم يكن مفتوحا، ولكنني أذكر أنني رأيت جماعة من الحمالين ينقلون الأثاث من الشقة المقابلة لشقة العجوز، أذكر ذاك جيدا، ولكنني لم أر أحدا من النقاشين.

فصاح بركوفتش فجأة:

- ولكن ما هذا الذي تقوله يا برفيريوس؟ إن النقاشين كانا يعملان في الشقة يوم الجريمة بالذات، وقال لك روديون: أنه ذهب إلى بيت المرأة قبل الجريمة بيومين.

وكان ذلك هو الفخ الذي اكتشفه روديون.

قال برفيريوس وهو يدق جبهته بيده:

- آه.. هذا صحيح، لقد خلطت بين الأيام فمعذرة

ثم التفت إلى روديون وأردف:

- من المهم جدا أن نعرف إن كان أحد قد رأى النقاشين في الشقة بين الساعتين السابعة والثامنة، وقد خلطت بين اليومين، وحسبت أنك تستطيع إمدادي بجواب شاف.

فقال بركوفتش مزمجرا:

- ألا تخلط بين الأيام مرة أخرى يا برفيريوس؟

الفصل الخامس

قال بركوفتش لصاحبه وهو يناقشه:

- كلا يا صديقي، أنا لا أصدق أنهم يرتابون فيك، إن ظنونك ومخاوفك لا تقوم على أساس.

فأجاب روديون وعلى شفتيه ابتسامة باردة:

- على رسلك إذن، أنت شخصيا لم تلاحظ شيئا، أما أنا فقد لاحظت أشياء كثيرة.

- ذلك لأنك مطبوع على سوء الظن، وقد ركبتك الوساوس فأصبحت تحمل الألفاظ من المعاني أكثر مما تحمل. إن لهجة زيمتوف كانت عجيبة حقا، أما برفيريوس فإنه تحدث إليك باحترام وصراحة.

- سوف نرى غدا.

- أكرر لك القول: أنك مخطئ، ولو كان القوم يرتابون فيك لحاولوا إخفاء ريبتهم حتى يتسنى لهم الإيقاع بك في الوقت المناسب، أضف على ذلك أنهم لا يملكون دليلا ضدك، وكيف يملكون شيئا لا وجود له.

- كلا.. كلا يا صديقي، دع هذه الوساوس جانبا، ولكي أقطع شكوكك باليقين، سأذهب إلى برفيريوس بنفسي، إنه قريبي كما قلت لك، سأذهب إليه إذن وأسبر غوره، وأجس نبضه.

- افعل ذلك إذا شئت، والآن يجب أن أقول لك إلى اللقاء، إني متعب وأشعر بالحاجة إلى الراحة، وسنتجمع هذا المساء عند أمي.

وافترق الصديقان وأوسع روديون الخطي في الطريق إلى منزله.. كان قد خالجه شعور مبهم بأنه أغفل بعض الحلي المسروقة في جدار غرفته، فأراد أن يستوثق. بيد أنه ما كاد يصل إلى المنزل ويراه البواب، حتى صاح هذا الأخير برجل قصير القامة كان وقتئذ يبتعد عن المنزل.

- آلو، تعال يا هذا، ها هو قد عاد.

فنظر الرجل قصير القامة وراءه، ورمق روديون بخشونة ثم هز كتفيه وواصل السير.

قال روديون محدثا البواب:

- ماذا حدث؟

- لقد جاء هذا الرجل منذ لحظة واستفسر عنك، وهاأنذا قد أنبأته بوجودك، ولكنه يخيل لي أنه عدل عن مقابلتك.

فدهش روديون وركبته الوساوس، ولم يطل تردده وانطلق في أثر الرجل قصير القامة، ولا شك أن الرجل شعر به، وسمع وقع خطواته، ولكنه لم يتمهل، وواصل السير في هدوء.

وأوسع روديون الخطى حتى أصبح يسير في محاذاة الرجل، فرمقه هذا بنظرة احتقار، ولكنه لم يتمهل. قال روديون وهو يسير بجانبه:

- هل سألت البواب عني؟

فلم يجبه الرجل ولم ينظر إليه.

قال روديون:

- إنك سألت البواب عني، وترفض الآن أن تنطق بكلمة فما معنى هذا؟

عندئذ رمقه الرجل بنظرة، وقال له بصوت كفحيح الأفعى:

- أيها القاتل.

كان هو المقصود بهذه الكلمة بغير شك؛ غاص قلبه بين جنبيه ثم وثب بشدة وقوة، ومرت به لحظة أحس فيها أن ساقيه لا تقويان على حمله، ولكنه مع ذلك استمر يسير مع الرجل جنبا إلى جنب، والرجل لا يعبأ به ولا يلقي إليه بالا.

غمغم روديون بلسان متلعثم وعلى شفتيه ابتسامة فوز مقيتة:

- إنك أنت القاتل.

وهنا أحس روديون بالكائنات تسبح أمام ناظريه، ولكنه استمر يتحرك ويسير كما تتحرك الآلة. وعرج الرجل على أحد الشوارع وابتعد، وجمد روديون في مكانه. ولما اجتاز الرجل المجهول ما يقرب من الخمسين خطوة، التفت وراءه ونظر إلى روديون مرة أخرى وعلى شفتيه تلك الابتسامة المقيتة.

عاد إلى غرفته ولم يعرف كيف عاد، وجلس على الأريكة وقد زاغت عيناه وشرد لبه ثم غلبه الضعف فتمدد وحبس رأسه بين كتفيه.

- ترى من هذا الرجل الذي نبت من قلب الأرض؟ وأين كان ساعة الجريمة؟ وماذا رأى؟ لا شك أنه رأى كل شيء، ولكن لماذا لم يقابلني قبل الآن؟ يا إلهي..! هل هذا ممكن، من يتصور هذا كذلك من كان يتصور أن قرطا يسقط مني فيلتقطه نيكولا.

واشتد به الغضب فاستطرد وعلى شفتيه ابتسامة:

- كان يجب أن أتوقع كل هذا، يا إلهي، كيف وجدت الجرأة على ارتكاب جريمة قتل؟

وجرى في ذهنه إلى موضوع المقال الذي حدثه عنه برفيريوس وقال:

- كلا.. لقد كان الرجال الذين استحلوا القتل أقوى مني جسما وعقلا وأعصابا، لقد قتل نابليون وأحرق وخرب ودمر، ومع ذلك فقد أقيمت له التماثيل بعد موته.. لماذا؟ لأنه لم يخلق من اللحم والدم، وإنما خلق من الفولاذ. نابليون.. ووترلو.. إيلينا إيفانوفا.. هل من المعقول أن يهضم برفيريوس مثل هذا الخلط؟ سوف يسأل نفسه: هل كان من الممكن أن يقتل نابليون امرأة عجوزا؟ ويزحف تحت فراشها ليسرق أموالها؟

وشرد لبه، وعاودته الحمى.

- إنني على استعداد للاعتذار عما حدث.

راح يهذي بقوله:

- لنسلم جدلا بأني أخطأت، فهل يجب أن أموت؟ ولكن هل أخطأت حقا؟ وهل كان يجب أن أترك أمي وأختي تتضوران جوعا؟.. إن الإنسان لا يعيش إلا مرة واحدة، وقد كان من الواجب أن أطمع في السعادة، وأن أشق طريقي إليها بمال تلك الحشرة القذرة.. هل كانت حشرة قذرة؟ وهل أنا حشرة أقذر من الحشرة التي أبدتها؟ لا شك في ذلك، بدليل أنني كنت أتوقع هذه النتائج جميعا، وكنت أتوقع أن أحدث نفسي بهذا الكلام، ومع ذلك أقدمت على هذه الجريمة. يا إلهي.. هل يمكن أن يكون رعب أهول من رعبي الآن؟

وبلل شفتيه بريقه واستطرد:

- كم كنت أحب أمي وأختي، ولكن لماذا أمقتهما وأمقت تلك العجوز المرابية، إذا عادت إلى الحياة الآن لما ترددت في قتلها مرة أخرى. وسونيا.. مسكينة تلك المخلوقة البائسة، لماذا ترضى بما قسم لها؟ لماذا لا تثور كما ثرت على فقري؟! سونيا.. سونيا.. ما أقدرك على الاحتمال، والتضحية في صمت وسكون..

وغلبه النعاس أو الإغماء، ولما فتح عينيه بعد ساعة أو بعض ساعة، رأى بالباب رجلا طويل القامة ذا لحية قصيرة، فوثب من مرقده وصاح:

- من أنت، ماذا تريد؟ ولماذا لا تتكلم؟

فأجاب الرجل وعلى شفتيه ابتسامة هادئة:

- لقد كنت واثقا أنك لست نائما، وأنك إنما تتظاهر بالنوم، اسمح لي أن أقدم إليك نفسي، أنا أدعى أركاديوس إيفانوفتش.

القسم الرابع

الشك

الفصل الأول

سأل روديون نفسه وهو يرمق الزائر في ارتياب:

- هل أنا مستيقظ حقا؟ أركاديوس إيفانوفتش ذلك الرجل الذي رواد دونيا عن عرضها؟ مستحيل أن يكون هو، ماذا جاء بك إلى هنا؟ ولماذا جاء؟

قال أركاديوس:

- إنني جئت لغرضين، أولهما أن أتعرف إليك بعد الذي سمعته عن خلالك الطيبة، وثانيهما أن أطلب معونتك في أمر يتصل من قريب في مصلحة شقيقتك. إن شقيقتك تسيء الظن بي وبطبيعة الحال، ومن المستحيل أن تسمح لي بمقابلتها، ولكن الموقف يتبدل إذا توسطت أنت في الأمر.

- أن تخطئ إذا اعتمدت على معونتي.

- اسمح لي أن أسألك: هل وصلت السيدتان أمس إلى بطرسبرج؟

فصمت روديون، قال الرجل:

- إنهما جاءتا أمس.. أنا أعلم ذلك. والآن أصغ يا روديون رومانوفيش،

إنني لا أريد أن أبرر سلوكي، ولكن دعني أسألك، هل تجد في موقفي شيئا من الشذوذ إذا أنت نظرت إليه نظرة سليمة بريئة من الاعتبارات الشخصية؟

فصعده رودیون بعینیه ولم یجب واستأنف أركاديوس:

- ستقول بغير شك أنني اضطهدت فتاة ضعيفة تحت سقف بيتي وأنني خدشت شعورها وكرامتها بما ذهبت أصبه في أذنها من اعتبارات الإغراء، ستقول لي هذا الكلام أليس كذلك؟ ولكن يجب أن أتذكر أنني رجل، وأنني مستهدف في كل لحظة لأن أقع في الحب، وأن الحب قوة خارجة على إرادتنا، ضع نصب عينيك كل هذه الاعتبارات فتنحصر الزوبعة أماك في فنجان، وتكون المسألة: هل أنا وحش أم ضحية؟ عندما عرضت على دونيا أن تفر معي إلى أمريكا أو سويسرا، لم أكن أضمر لها غير أنبل المشاعر، وكنت أعتقد أن اقتراحي يضمن لنا السعادة المشتركة. كان اقتراحا ناتجا عن العقل والحكمة، ولكنك تعلم أن العقل عبد للقلب ومهما يكن من اقتراحي فإنه لم يضر أحداً سواي.

- هذه ليست المسألة، وسواء كنت على حق أو خطأ فإنني أحتقرك، ولا أريد أن أعرفك، وأطلب إليك الآن أن تنصرف كما دخلت.

- يخيل إلي أنه ليس ثمة سبيل إلى إغرائك، ولكن هل ترى أن علي أن أنصرف قبل أن تعرف غرضي من هذه الزيارة؟

ففكر روديون قليلا ثم قال:

- إذن تكلم وأوجز، فإنني على موعد وسأنصرف في الحال.

- حسنا.. سأوجز بقدر ما أستطيع، هل في نية دونيا حقا أن تقترن بمسيو لوشن؟

- يجب أن تترك أختي وشأنها، وألا تذكر اسمها.

- إنني جئت من أجلها خصيصا، فطبيعتي إذن أن أتحدث عنها، إن لوشن هو من أقربائي البعيدين، ولكنني واثق من أنك إذا تحدثت إليه نصف ساعة فقط وجدت في الحال أنه ليس خليقا لأن يكون زوجا لشقيقتك، وفي اعتقادي أن دونيا إذ تقترن به، إنما تفعل ذلك على سبيل التضحية من أجل إنسان آخر

- ثم..

- أنا واثق أنك تتهمني في قرارة نفسك بالأنانية، وتعتقد أنني لم أسمع إليك الآن إلا لتحقيق غرض شخصي، والواقع أن لي غرضا، ولكنه ليس الذي تتوهمه. يجب أن أقول لك أولا أن زوجتي توفيت منذ أسبوعين، وأن أولادي يعيشون الآن مع جدتهم لأمهم، أما أنا ففي نيتي أن أرحل عن هذه البلاد، وبودي تصفية بعض الشؤون قبل رحيلي، وأهم ما أعنى به من هذه الشؤون هو الانتقام من لوشن، فهو الذي أغرى زوجتي بأن تندد بي، وتتشدق في كل مكان بالحادث

الذي وقع بيني وبين أختك، وكل ما أطالبك به الآن هو أن تتوسط بيني وبين أختك بحيث تسمح لي بمقابلتها، فأعمل أولا على إقناعها بضرورة العدول عن الزواج، وأطلعها على ما تجهل من نذالة لوشن ومساوئه، ومن ثم أرجوها قبول عشرة آلاف روبلا تعويضا عن الخسارة المادية التي تترتب عن فسخ الخطوبة.

فصاح روديون بمزيج من الدهشة والغضب:

- إنك مجنون بغير شك، كيف تفكر في مثل هذا العرض

- أعلم أن اقتراحي يدهشك، ولكني في سعة من العيش. ولا يعلم غير الله كيف أستطيع إنفاق أموالي الطائلة، بيد أنني أريد أن أزحزح عن ضميري، وهذا المبلغ الذي أعرضه هو تعويض عن الإهانة التي ألحقتها بأختك أكثر منه تعويضا عن فسخ خطوبتها.

- كفى.. كفى بربك، إن اقتراحك هو القحة بعينها.

- كلا، أتعتقد أن من حق الإنسان في هذه الحياة أن يؤذي الآخرين إذا شاء، وليس من حقه أن يفيدهم، هب أنني مت الآن وتركت كل ثروتي لشقيقتك فهل ترفضها؟

- يحتمل أن ترفضها.

- إذن لنترك الحديث في مسألة المال، فهل تساعدني على مقابلة أختك؟

- هذا ما لن أفعله.

- لم يبق لي إلا أن أسعى لمقابلتها دون وساطتك وإن كنت أعلم أن هذه المقابلة ستزعجك إلى حد ما.

- وإذا ذكرت لها وجهة نظرك فهل تكف عن السعي لمقابلتها؟

- لا أستطيع أن أعد بذلك، إنني أود أن أقابلها ولو مرة واحدة.

- لا تطمع كثيرا في تحقيق هذا الأمل.

- هذا سوء الحظ، فقد كنت أود أن تتوثق بيننا أواصر الصداقة.

- شكرا لك، إنني زاهد في صداقتك.

فقال أركاديوس وهو ينهض واقفا:

- في هذه الحالة لم يبق لي إلا أن أرحل، ولكن صبرا، لقد كدت أن أنسى أمرا، أرجوك يا روديون أن تبلغ أختك أن زوجتي مارتا أوصت لها عند وفاتها بمبلغ ثلاثة آلاف روبلا وأنها تستطيع الحصول على هذا المبلغ بعد أسبوعين أو ثلاثة.

- أتقول حقا؟

- نعم فلا تنس أن تنبئها بذلك.

وخرج في ذات اللحظة التي أقبل فيها بركوفتش.

الفصل الثاني

كانت الساعة الثامنة إلا بضع دقائق عندما انطلق روديون وبركوفتش في طريقهما إلى منزل بكاليف حيث تقيم والدة الأولى وشقيقته، وقال بركوفتش:

- من هذا الرجل الذي انصرف من غرفتك ساعة قدومي؟

- إنه أركاديوس إيفانوفتش التي كانت دونيا تشتغل بتربية أولاده، ثم تركت العمل في منزله لأنه طارحها الغرام، وقد ظننت زوجته أن دونيا تعمل على إغرائه فطردتها، ثم اعتذرت لها فيما بعد عندما علمت بالحقيقة، وقد توفيت زوجته منذ أيام فرحل في أثر دونيا، إنني أرتاب في هذا الرجل ولا أعرف لماذا؟ يخيل لي أنه قوي الإرادة غريب الأطوار، وأن لديه خطة معينة يعمل على إنفاذها، يجب حماية دونيا من شره.

- يجب حمايتها من شره! ماذا يستطيع أن يصنع بها؟

وواصلا السير في صمت، والتقيا بلوشن أمام المنزل الذي يقصدان إليه، ودخل الثلاثة دون أن يتبادلوا التحية، وخفت دونيا لاستقبال الشابين، وأحنى لوشن قامته باحترام أمام الأمل وقال لها وهو يجلس على أحد المقاعد:

- آمل ألا تكون الرحلة قد أجهدتك وأزعجتك.

- كلا.. شكرا لله.

وقال روديون فجأة:

- أتعلمين يا دونيا أن أركاديوس كان في زيارتي منذ بضع دقائق وتحدث إلي طويلا فطلب أن أرجوك في مقابلته لكي يعرض عليك اقتراحا، ثم ذكر أن زوجته أوصت لك بثلاثة آلاف روبلا؟

فهتفت الأم:

- يا للمرأة الطيبة، يجب أن تبتهلي من أجلها يا دونيا.

واستطرد روديون يقول:

- وذكر أيضا أنه يريد أن يبعثر نقوده وأن في نيته أن يغادر هذه البلاد.

فسألته الأم:

- وما هو الاقتراح الذي يريد أن يعرضه على دونيا؟

- سأحدثك عنه فيما بعد.

ونظر لوشن إلى ساعته وقال هو ينهض واقفا:

- يؤسفني أنني لا أستطيع البقاء هنا طويلا إذ لدي أعمال مهمة.

فقالت دونيا:

- صبرا لحظة يا بيتر لوشن، لقد ذكرت في رسالتك أن ثمة مسائل تريد أن تتفاهم مع والدتي عليها

- هذا صحيح، ولكن لا أستطيع ذلك الآن مع وجود طرف ثالث، يضاف إلى ذلك أنني أوضحت إحدى الرغبات أيضا في رسالتي ولكنكم ضربتم بها عرض الأفق.

- أعلم أنك رغبت في تنحية أخي عن هذا الاجتماع، ولكني أردت غير ذلك، إذ من رأيي أنه لا يجب أن يقوم بينكما سوء تفاهم، وإذا كان أخي قد أهانك حقا فلا بد أن يتعذر.

- هناك إهانات لا يستطيع الإنسان أن يتجاوز عنها يا آنسة.

- لقد حضر أخي دون أن يعلم أنني أنوي الإصلاح بينكما إذا استطعت، والاختيار بينكما إذا لم أستطع.

- المرأة يجب أن تضع زوجها في الموضع الأول قبل سائر الناس.

فصاحت الفتاة وقد احمر وجهها:

- ماذا تقول، ألا يرضيك أن أضعك وأخي في ميزان واحد.

وقالت الأم:

- وبهذه المناسبة يجب أن أقول لك أنك تسيء الظن بروديون بغير مبرر يا لوشن، وقد أسندت إليه في رسالتك تهمة لا أساس لها.

- لا أذكر أنني سجلت في رسالتي كلمة واحدة لا تطابق الواقع.

فقال روديون:

- بل قد ذكرت في رسالتك أنني تبرعت بكل نقودي لابنة رجل قتلته إحدى المركبات، وأردت أن تلوث سمعتي بالأوحال أمام أمي وأختي فوصفت الفتاة بأن لها سمعة معينة وتلك وشاية دنيئة.

- لا أعتقد أن هناك من يصف تلك الفتاة بأنها عضو محترم في الهيئة الاجتماعية.

- في اعتقادي أنك رغم كل مظاهرك الجوفاء لا تساوي قلامة من ظفر تلك الفتاة.

- هل تستطيع أن تقول بأنها من الشرف والطهر بحيث لا تتردد في الجمع بينها وبين أمك وأختك؟

- إنني قدمتهما إليها أمس وأجلستها بين أمي وأختي.

فارتسمت على شفتي لوشن ابتسامة خبيثة وقال:

- هل يمكن بعد هذا أن يقوم تفاهم بيني وبينك وبين أخيك يا آنسة؟

ونهض واقفا واستطرد:

- أرى من الخير أن أضع بانصرافي حدا لهذا الموقف المؤلم يبدو أن مبلغ الثلاثة الآلاف روبل، قد جاء في الوقت المناسب وإلا لما وجدتم الجرأة على التكلم بهذه اللهجة.

فقال له روديون:

- اخرج من هنا، دعني لا أرى وجهك بعد الآن.

وقال بركوفتش وهو يضم قبضته:

- يخيل إلي أن هذا النذل بحاجة إلى درس في الأدب.

كانت جلسة عائلية بين رحيل لوشن، وراح روديون يروي كيف أصر أركاديوس على أن يعطي دونيا عشرة آلاف روبلا، ويريد أن يقابلها مرة واحدة.

فصاحت الأم:

- يقابلها هذا مستحيل، كيف يجرؤ التعس على التلويح بالمال؟

وأخذوا يتجاذبون الحديث ساعة بعد ذلك، ثم نهض روديون فجأة

وتناول قبعته لينصرف فلما اعترضت أمه قال لها في لهجة غريبة:

- إن من يصغي إليكما يخيل إليه أنه فراق لا لقاء بعده.

فسألته أمه في قلق:

- ماذا دهاك يا روديون؟

- كان بودي عندما جئت أن أقول لك يا أمي، وأنت يا أختي بأنه ربما كان من الخير لنا جميعا أن نفترق بعض الوقت، لست في خير حال وأشعر بحاجة للراحة، اتركاني وشأني، لقد قررت وانتهى الأمر، يجب أن أظل بمفردي، فأرجو أن تنسياني.

فصاحت الأم من قلب يتمزق:

- يا إلهي.. روديون.. رحمة بنا يا ولدي.

ولكنه سار نحو الباب ببطء، ولحقت به أخته وناشدته البقاء، فأجاب بصوت خافت:

- سأحاول أن أعود.

- يا لك من أناني قاسي القلب.

فقال بركوفتش:

- إنه ليس أنانيا، ولكنه مجنون.

وانطلق في أثره، ولكنه وجده في انتظاره بالباب، وقال روديون:

- كنت أعلم أنك ستأتي في أثري، فعد أدراجك ولا تتركهما، لا تتركهما أبدا.

- ولكن إلى أين أنت ذاهب؟ وماذا دهاك؟

والتقت عيونهما وظلا كذلك لحظة وفجأة ارتعد بركوفتش وفر لونه. انبلجت له الحقيقة الهالة، وقال روديون وقد انقلبت سحنته انقلابا مخيفا:

- هل فهمتني الآن؟ عد إليهما.

الفصل الثالث

صعد روديون السلم حتى انتهى أخيراً إلى غرفة سونيا وطرق بابها، ولما فتحت الباب ووجدته أدهشتها الزيارة، ووقفت جامدة أمامه بينما تهالك على أحد المقاعد. ونظرت إليه الفتاة وهي ترتجف خوفا فقال لها:

- إنني أزورك الآن لآخر مرة وربما لا أراك مرة أخرى.

- ماذا تعني؟ هل في نيتك أن ترحل؟

- لا علم لي بذلك، غدا أعلم كل شيء، لماذا لا تجلسين؟

فجلست، وتأملها لحظة في رفق ثم قال:

- من ذا الذي يقيم في الغرفة المجاورة؟

- امرأة تدعى مدام روسليخ، وهي تؤجرها فمن يريد؟

وأخذ يحدثها بكل ما يعرفه عنها ولما سألته عن مصدر معلوماته أخبرها بأنه قد علم ذلك كله من أبيها الراحل، وتطرق بهما الحديث إلى زوجة أبيها كاترين فقالت سونيا:

- إنها وديعة كالحمل، لقد اضطربت قواها العقلية في المدة الأخيرة

بتأثير الفقر والجوع والمرض، ولكنها على جانب عظيم من النبل وكرم الخلق.

- وأنت.. ماذا يكون مصيرك؟ إنهم عالة عليك، وأعلم أنهم كانوا كذلك دائما ماذا يكون من أمرهم الآن بعد أن مات أبوك وانفصمت بموته صلة الدم التي كانت تربطك بهم.

- لا أعلم، إنهم مدينون لصاحبة المنزل وقد هددت اليوم بإلقائهم في قارعة الطريق.

- إن كاترين مريضة بالسل الرئوي في أخطر حالاته، وأكبر الظن أنها لن تعمر طويلا.

- كلا، كلا، لا تقل ذلك.

- والأطفال.. ماذا في نيتك أن تصنعي بهم، هبي أن الموت لم يخترم كاترين عاجلا وأنك أصبت بمرض اقتضى نقلك إلى المستشفى فماذا يكون؟

فصاحت وقد ترك الذعر على وجهها طابعا شوه جماله:

- لا تقل ذلك.. هذا مستحيل.

فابتسم في تهكم وقال:

- كيف؟ هل أنت في حصانة من المرض؟ ماذا يكون مصير عائلتك إذا أصابك مرض ونقلت إلى المستشفى؟ سيتشرد الأطفال وستتضور الأم جوعا في الطرقات، وهى عليلة سقيمة لتحرك القلوب الرحيمة وتستجدي أكف المحسنين.

فهتفت سونيا بصوت مختنق:

- كلا، كلا، إن الله لا يسمح بذلك.

ونهض روديون من مقعده وأخذ يسير في الغرفة والفتاة لا تأتي بحركة إذ كانت فريسة لألم نفساني لا يحتمل. وسألها فجأة:

- أليس في استطاعتك أن تدخري شيئا من المال لساعة الضيق؟

- كلا.

- طبعا لا تستطيعين ولكن هل حاولت؟

- نعم وفشلت..

واستمر يسير في الغرفة على غير هدى ثم سأل:

- هل تربحين كل يوم؟

فاضطربت واحمرت وجنتاها وأجابت بصوت خافت حزين:

- كلا.

فقال بحدة:

- وبولنيكا، أظن أن سيكون هذا شأنها.

فصاحت سونيا كأنما أصابتها طعنة خنجر:

- حاشا لله، إن الله لا يسمح بأمر كهذا، إن الله سوف يحميها ويصونها من الزلل.

ودفنت رأسها بين يديها وانفجرت باكية، ووقف أمامها بغتة وعيناه تلمعان وشفتاه ترتجفان وألقى بيده على كتفيها يتأمل وجهها الشاحب الذي يسبح في الدموع ثم خر ساجدا على ركبتيه وقبل قدميها.

وذعرت الفتاة ونظرت إليه في رعب كما تنظر إلى رجل به مس من الجنون:

- ماذا تفعل؟ أتسجد لي؟

فنهض واقفا وقال بلهجة غريبة:

- إنني لا أسجد لك شخصيا، إنني أسجد للإنسانية المعذبة في شخصك، لقد قلت لأحد الناس منذ قليل أنه لا يساوي قلامة ظفرك، وأنت شرفت أمي بإجلاسها معك.

فصاحت سونيا وهي لا تكاد تصدق أذنيها:

- وكيف تقول كلاما كهذا، أتتشرف أمك بجلوسها معي، أنا المرأة الساقطة.

- عندما قلت هذا الكلام لم أكن أفكر في عارك أو في خطاياك، بل في آلامك فقط، ليس من شك في أنك ضللت سواء السبيل، ولكنك اهتديت إلى سبيل التضحية، على أنها تضحية بلا جدوى، أليس أفضل لك ألف مرة أن تلقي بنفسك في النهر.

ونظرت إليه نظرة الذبيحة البريئة وسألت:

- والأطفال.. ماذا يكون مصيرهم؟

وسأل نفسه:

- ترى هل استساغت الرذيلة واستمرأتها حتى لم تعد ترى بشاعتها؟ هذا مستحيل، فالأوحال التي لوثت جسدها لم تلوث روحها.

كان يقرأ قلبها كما يقرأ كتاب مفتوحاً، هناك بغير شك قوة أخرى تمنعها من الانتحار، ولعلها أحجمت عن قتل نفسها خشية اللعنة وعقاب الله في اليوم الآخر، وسألها:

- هل تؤمنين بالله يا سونيا؟

وصاحت بغتة:

- ماذا كنت أكون لولا إيماني بالله؟

- وماذا صنع الله لك؟

وغمغمت الفتاة بسرعة:

- هذه القوة التي تعينني على المكاره هي قبس من رحمة الله.

فتأملها طويلا كأنه يراها لأول مرة ثم أشاح بوجهه فوقع بصره على كتاب فوق الوسادة فتناوله وفحصه، كان نسخة من الكتاب المقدس، ولما سألها عن مصدره أجابت بأنها استعارته من إليزابيث التي قتلت في الأسبوع الماضي إذ كانت امرأة طيبة القلب وكانت تبتاع منها بعض الثياب.

فقال لها روديون:

- هل لك أن تسمعيني بعض ما جاء به؟

فاختطفت الكتاب بلهفة وشرعت تقرأ وأصغى إليها طويلا. وذابت الشمعة التي كانت تضيء الحجرة، وارتجفت ذبالتها إيذانا بالانطفاء، والبغي لا تزال تقرأ في الكتاب المقدس، والقاتل لا يزال يصغي. وقال روديون أخيرا: "كفى"، ثم سار إليها وقال بلهجة تدل على العزم:

- إنني اليوم قد فصمت صلتي بأمي وأختي، أنت الآن كل شيء لي في

الحياة فدعينا ننطلق معا، نحن ملعونان، فلنذهب معا.

- وإلى أين نذهب؟

- وكيف أعلم؟ كل ما أعلمه هو أن سبيلنا واحد وغرضنا واحد.

فنظرت إليه دون أن تفهمه، فهمت أمرا واحدا هو أنه شقي في الحياة.

وقال لها فجأة:

- افصمي صلتك بهؤلاء الأطفال الذين يجتذبونك إلى الحضيض، هل فهمت؟ ابحثي عن الحرية والقوة، فهما مصدر الحياة، تلك هي وصيتي لك فاذكريها فربما كان حديثي الليلة هو آخر أحاديثي معك، وإذا لم أعد إليك غدا فأنك ستعرفين السبب، إذا عدت غدا سأذكر لك اسم قاتل إليزابيث.

فارتعدت الفتاة وملكتها الحيرة وسألت في رعب:

- ولكن هل تعرف قاتلها حقا؟

- نعم، وسأميط عنه اللثام، ولكن لك وحدك.

الفصل الرابع

عندما قصد روديون إلى بيت برفيريوس وجد هذا الأخير في شغل بمكتبه فاضطر إلى أن ينتظر إلى أن دعاه إلى الدخول فقال روديون:

- لقد كتبت الورقة التي طلبت إليَّ أن أكتبها أمس بشأن ودائعي.

وقدم إليه الورقة فتناولها برفيريوس وهو يقول:

- أية ورقة؟.. آه.. هذه هي الصيغة المطلوبة.

- لقد خيل إليَّ أمس أنك ترغب في استجوابي فيما يختص بمعاملاتي مع العجوز.

فغمغم برفيريوس وهو يسير في الغرفة:

- ولماذا الإسراع؟ لا يزال لدينا متسع من الوقت، لعلك تلاحظ أنني أفضل العمل في مكتبي بالمنزل حيث الهدوء، إن العمل في مكاتب الحكومة يحطم أعصابي.

فقال له روديون وهو يبتسم:

- هل حقا ما يقال من أن المحققين يحرصون دائما على مفاتحة المتهم

بحديث أجوف في شؤون تافهة حتى يطمئن وتزول مخاوفه حتى إذا طابت نفسه بادره المحقق بضربة تلقيه صريعا؟

- إذن أنت تعتقد بأنني إنما أريد.. ها.. ها..

وانفجر الرجل ضاحكا فغضب روديون ونهض لينصرف فكف المحقق عن الضحك وقال:

- اجلس يا مسيو روديون ولا تزعج نفسك، قلت لك أن لدينا متسعا من الوقت، والمسألة قليلة الأهمية، اجلس وإلا دخل في روعي أنك غاضب محنق.

فجلس روديون واستطرد المحقق:

- إن الضحك ضروري كالرياضة، ولن أحدثك في شيء تافه بعيد عن موضوع القضية بعد الآن، ألا تعلم أن جميع الإجراءات الشكلية في التحقيقات الرسمية قد لا تسفر في بعض الأحيان عن النتيجة التي يخرج بها المحقق من حديث ودي أو مقابلة بسيطة؟ وما دام المطلوب هو الوصول إلى النتيجة فماذا تهم الأساليب.

واستمر برفيريوس يسير في الغرفة ثم استأنف:

- إن المجرم القلق لا يشعر بالسعادة مع الحرية، ولكن لماذا أنت ممتقع الوجه يا صديقي العزيز، يخيل إلي أن الحر شديد في الحجرة،

هل أفتح النوافذ؟

- كلا.. شكرا، لا تلق بالا إلي..

ثم نهض روديون واقفا وتابع:

- إنني الآن واثق من أنك ترتاب في أنني قاتل العجوز وأختها، على أنني قد سئمت المناورات والمحاورات، فإذا كنت ترى أن من واجبك أن تقبض علي فافعل ذلك في التو.

- إن أوهامك ستقتلك يا فتى.

- أوهامي، وماذا تعرف أنت من أوهامي؟

- إنني أعرف كل شيء يا روديون مانوفتش، أعلم مثلا أنك ذهبت حول منتصف الليل لاستجار شقة خالية، وأعلم أنك دققت الجرس، جرس الشقة مرارا واستفسرت عن آثار الدم. إن أطوارك أزعجت الذين بصروا بك، وأكبر ظني أن هذه الوساوس والانفعالات إذا اشتدت بك فستنتهي بجنونك. إنك تسير على قارعة الطريق وتطلب إلى الناس أن يتهموك، أليس كذلك؟

- كيف علمت؟ هل تريدني أن أفهم أنك تحيطني بالعيون والأرصاد؟ لماذا لا تتكلم بصراحة؟ لماذا لا تذكر لي أن كنت ترتاب في أو لا ترتاب. أفصح يا برفيريوس بتروفتش، وكفى مواربة، ومواراة.

- ولكن ماذا تريدني أن أقول لك يا سيدي العزيز ألا يكفيك أنك تعيش في سلام وأن أحدا من رجال البوليس لا يضايقك؟

- هل ثمة ما يدعوك لإزعاج نفسك بهذه الحالة؟

- إنني لم أعد أطيق.

- لم تعد تطيق الشك، أليس كذلك؟

فصاح روديون في غضب:

- نعم، لم أعد أطيق الشك أو أحتمل هذا العذاب، اقبض علي إذا شئت، واستجوبني بالطريقة القانونية، وفتش غرفتي، وصادر أمتعتي، أما هذه المداعبات السمجة فإنني...

فقاطعه برفيريوس:

- رفه عنك يا صديقي، فليس ثمة محل للكلام عن التفتيش والمصادرة والاعتقال، إنني أطلب إليك الحضور كصديق.

- إنني زاهد في صداقتك، فهل فهمت؟ وهاأنذا منطلق في سبيلي، فهل في نيتك إلقاء القبض علي؟

وقصد الباب، فسار برفيريوس في أثره، وألقى بيده على كتفه وسأل وهو يبتسم:

- أليست لك رغبة في مفاجأة بسيطة؟

فجمد روديون في مكانه، وسأل وهو يلهث:

- أية مفاجأة؟ ماذا تعني؟

فأشار برفيريوس إلى باب في ركن الغرفة وقال:

- إنها وراء هذا الباب، وقد بلغ من شدة حرصي عليها أنني أغلقت الباب بالمفتاح لكيلا تفلت

- وما نوع هذه المفاجأة؟

وقصد إلى الباب وعالجه. قال المحقق:

- قلت لك أنه مغلق.

فصاح روديون وقد ضاق ذرعا:

- إنك تكذب دائما أيها المهرج، هل فهمت الآن، أنت تكذب وتمعن في الكذب، لكي أتخاذل وأعترف على نفسي.

- ولكن بم تعترف يا صديقي ما دمت لم ترتكب إثما؟.. انظر كيف أنت شديد الانفعال يا روديون رومانوفتش!

- أيها الكاذب، أنت تعلم أنني مريض وتريد أن تحطم أعصابي لكي

أعترف، تلك هي غايتك، أبرز ما عندك من الأدلة، أنت لا تملك دليلا غير ريبتك الحمقاء وشكوك زيمتوف التعس.

وفجأة سمع روديون جلبة عند الباب، فانقلبت سحنته وصاح:

- ها هم رجالك، لقد أقبلوا، اعترف إذن قصدت إطالة الحديث حتى يحضروا.

وفي هذه اللحظة حدث حادث لم يتوقعه برفيريوس نفسه.

الفصل الخامس

فتح باب الغرفة واندفع منه رجل يتبعه شرطيان، والظاهر أن الرجل أفلت من الشرطيين عند باب الغرفة لأنهما هجما في أثره. صاح برفيريوس في غضب:

- من هذا؟ لقد أصدرت أوامري بأن...

فقال أحد الشرطيين:

- إنه المتهم نيكولا، وقد التمس بإلحاح أن يقابلك.

أما المتهم فإنه غاص في الحال تحت قدمي المحقق وصاح بصوت مرتفع:

- عفوا يا سيدي، إنني مذنب، أنا القاتل.

فدهش الجميع وصمتوا كأن على رؤوسهم الطير، وكان برفيريوس ورورديون أشد الجميع دهشة؛ فقال برفيريوس بصوت أجش:

- ماذا تقول يا رجل؟

فأجاب نيكولا:

- أنا القاتل يا سيدي.

- كيف؟ أنت؟ ومن الذي قتلت؟

- قتلت إيلينا إيفانوفا، وقتلت أختها إليزابيث، قتلتهما في لحظة جنون.

فعقد برفيريوس ساعديه فوق صدره، وأطرق برأسه، وأخذ يسير في الغرفة وعلى وجهه علامات التفكير العميق، وأخيراً أومأ للشرطيين أن يُرابطا خارج الباب، ثم التفت إلى نيكولا وسأله:

- إننا لم نوجه إليك تهمة القتل قبل الآن، فهل تعترف بارتكابها؟

- نعم، أعترف بأنني القاتل

- وبم ارتكبت الجريمة؟

- ببلطة أعددتها لهذا الغرض.

- فكر قبل أن تجيب، هل كنت بمفردك؟

فلم يفهم نيكولا السؤال الأخير. قال برفيريوس:

- هل لك شركاء؟

- كلا، إن ديمتري بريء، ولم يشترك في الجريمة.

- لا تسرع بتبرئة ديمتري، أنا لم أذكر لك اسمه.. ولكن كيف حدث أن البواب وغيره بصروا بكما، وأنتما تعدوان في أثر بعضكما؟

- إنني انطلقت في أثر ديمتري عمدا، بقصد التضليل وإبعاد الشبهة عن نفسي.

فصاح برفيريوس بحدة:

- هذا يكفي.

وقال لنفسه: "إن الرجل يكذب". وفجأة التقت عيناه بعيني روديون الذي أذهلته هذه المفاجأة العجيبة، فسار إليه وهو يقول:

- عفوا يا عزيزي روديون، أظن أن مهمتك قد انتهت، أرأيت المفاجأة؟

وتأبط ساعده وسار إلى الباب، فقال روديون وقد ملك سلطانه على نفسه:

- أنت نفسك لم تكن تتوقع هذه المفاجأة.

- وأنت كذلك، انظر إلى يديك كيف ترتجفان.

- وأنت كذلك ترتجف يا برفيريوس بتروفتش.

- صدقت فإنني لم أكن أتوقع هذا.

فقال روديون ساخرا:

- ألا تريد أن أرى مفاجأتك الصغيرة؟

فضحك برفيريوس وقال:

- يا إلهي إنك ما تكاد تلتقط أنفاسك حتى تسرع في التهكم والسخرية، إلى اللقاء يا صديقي.

- بل قل وداعا.

- ذلك أمر بيد الله.

وانصرف روديون من منزل المحقق وهو أشد حيرة مما كان عند دخوله.

كان سلوك نيكولا طلسما غامضا بالنسبة إليه، ولكنه كان واثقا من الحقيقة سوف تنبلج، وأن الحرية التي يستمتع بها الآن ليست إلا حرية مؤقتة سوف يعقبها خطر ماحق، دخل غرفته وألقى بنفسه على الأريكة، ودفن رأسه بين كفيه، تذكر أنه على موعد مع سونيا فتناول قبعته وهم بالانصراف، تذكر أنه ما كاد يفتح الباب حتى وقف شعر رأسه وجمد الدم في عروقه، رأى أمامه ذلك الرجل المجهول قصير القامة الذي صفعه مرارا بكلمة: "أيها القاتل".

نظر الرجل إلى روديون من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ثم نفذ من الباب ودخل الغرفة، وكانت تبدو على وجهه في هذه المرة علامات الحزن والألم، وقد تلاشت عن شفتيه ابتسامة الفوز المقيتة التي فعلت في قلب روديون ما يفعله نصل الخنجر.

هتف روديون بصوت أجش ووجه شاحب كوجه الموتى:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

فقال الرجل بصوت خافت:

- إنني جئت أسألك العذر يا سيدي.

فنظر إليه روديون متسائلا. قال الرجل:

- إنني أسأت بك الظن بغير مبرر، والظاهر أنك كنت ثملا في تلك الليلة حين استفسرت عن آثار الدماء في الشقة، وطلبت إلى البواب أن يذهب بك إلى مكتب البوليس. قد خيل إلي عندئذ أن وراء الأكمة وما وراءها، ولم يغمض لي جفن في تلك الليلة، ولكن اسمك وعنوانك كانا قد لصقا بذهني.

فسأله روديون وقد بدأت تنبلج له الحقيقة:

- أنت الذي قابلتني في الطريق.

- نعم، أنا الذي قابلتك وأهنتك.

- وإذن فقد كنت موجودا في المنزل في تلك الليلة؟

- كنت موجودا أمام المنزل، وسمعت الحديث الذي دار بينك وبين البواب، إنني أملك حانوتا هناك.

وهنا خطر لروديون خاطر فجائي فسأل:

- هل ذكرت لمسيو برفيريوس أنني ذهبت إلى ذلك المنزل؟

- من هو برفيريوس؟

- قاضي التحقيق.

- إنني ذكرت له ذلك.

- متى؟

- اليوم، قبل ذهابك إليه ببضع دقائق، والواقع أنني سمعت ما دار بينكما من حديث.

- أين، كيف؟

- إنني كنت في المنزل.

- هل تعني أنه وضعك في الغرفة المجاورة لمكتبه؟

- إنني كنت أسرد عليه ما حدث حين أنبأ الخادم بقدومك، فذهب بي إلى الغرفة المجاورة، وقدم إليَّ مقعدا وسألني أن أنتظر، ثم أغلق الباب بالمفتاح. وبعد قدوم نيكولا وانصرافك، فتح الباب وقال لي: اذهب الآن في سبيلك، فلست في حاجة إليك، فأدركت في الحال أنني أسأت الظن بك، ووشيت بك بغير مبرر، فهل تغفر لي؟

فقال روديون بصوت خافت:

- ليغفر الله لك.

فأحنى الرجل قامته بخضوع واحترام وانصرف.

وقال روديون لنفسه وقد انتعشت آماله:

- ليس ثمة أدلة تستحق الذكر، لنستعد لاستئناف النضال.

ولعن نفسه لخوفه وذعره.

القسم الخامس

القصاص

الفصل الأول

هتفت سونيا عندما وقع بصرها على وجه روديون:

- أهذا أنت؟.. لقد كنت أنتظرك بفارغ الصبر.

فنظر إليها في قلق وتساؤل، قال بصوت يفيض بالدموع:

- لقد ذهبت لزيارة كاترين إيفانوفا والأطفال فعلمت أن مدام ليفز طردتهم من بيتها وألقت بهم في الشارع.

- ألقت بهم في الشارع؟

- نعم، وقد بحثت عنهم بغير جدوى، وكنت أنتظرك لكي تساعدني في البحث عنهم.

- ألا تفكرين إلا فيهم؟ أما آن لك أن تفكري في نفسك؟

- ماذا تريدني أن أفعل؟ هل جئت خصيصا لإيلامي؟

فتنهد وغمغم:

- لماذا أزعجك وأؤلمك، على أنني لم أجئ خصيصا لذلك.

وجمع أطراف شجاعته واستطرد:

- قلت لك أمس أنني إذا قابلتك اليوم فسأذكر لك اسم قاتل إليزابيث.

فمرت بجسدها رعدة قوية وقالت بصوت مرتجف:

- أعلم أنك قلت ذلك أمس، فهل عرفوا القاتل؟

- كلا أنهم لم يعرفوا بعد.

فساد صمت قصير ثم سألت الفتاة:

- فهل عرفته أنت؟ وكيف عرفته؟

فنظر إليها، وتلاعبت على شفتيه ابتسامة طفيفة. قال:

- فكري.

فرفعت إليه عينين مذعورتين وصاحت:

- يا إلهي، أنت... أنت تخيفني، لماذا لا تتكلم؟

فقال دون أن يحول عينيه عن وجهها:

- إنني أعرف القاتل كما لم يعرفه إنسان آخر، وأعرف أنه لم يقتل إليزابيث عامدا. كان في نيته أن يقتل العجوز وحدها متى انفردت في منزلها، فذهب إلى ذلك المنزل وما كاد يفرغ من العجوز حتى دخلت إليزابيث فاضطر أن يقتلها.

وساد صمت عميق، ولم يحول أحدهما عينيه عن وجه الآخر

همس:

- ألم تعرفي القاتل بعد؟

فغمغمت بصوت لا يكاد يسمع:

- كلا.

- فكري مرة أخرى.

ونظر إلى الفتاة، فرأى على وجهها آية الرعب التي رآها على وجه إليزابيث حين هم بقتلها.

رفعت الفتاة يدها إلى فمها كما يفعل الطفل المرعوب قبل أن ينفجر باكيا. حز ذعرها في قلبه، ولكنه غمغم:

- هل عرفت القاتل؟

فهتفت:

- يا إلهي!

وغاصت نحو الأرض ودفنت وجهها بين كفيها، ثم نهضت على الأثر، وقبضت على ساعديه بأصابع كالفولاذ، ونظرت في عينيه،

واستحالت ريبتها إلى يقين، ولم يقو على احتمال نظرتها فصاح:

- كفى يا سونيا، كفى، كفى، كفى.

فأفلتت من فمها صيحة مختنقة، وركعت عند قدميه وغمغمت بصوت البائس:

- أنت هالك.

ونهضت فجأة وضمته إلى صدرها كأنه طفل وقبلته.

قال وعلى شفتيه ابتسامة حزينة:

- إنني لا أفهمك يا سونيا، كيف تقبلينني بعد أن..

فقالت وهي تنتحب:

- كلا، إنك في هذه اللحظة أشقى إنسان على وجه الأرض.

وهنا خيل إليه أن قلبه يرق بتأثير عاطفة حلوة مجهولة وقال وهو ينظر إليها ضارعا:

- أنت إذن لن تهجريني يا سونيا؟

- كلا... كلا... أبدا.. سأتبعك إلى أي مكان.

- يا إلهي، كيف لم أعلم قبل الآن؟

وساد صمت مؤلم قطعته بقولها:

- ولكن كيف أمكن أن تفعل ذلك ولماذا؟

- لكي أسرق، ولكن كفى، كفى يا سونيا.

- يا إلهي، هل كنت جائعا؟ هل فعلت ذلك لتعول أمك؟ تكلم؟

- كلا يا سونيا، كلا، لم تبلغ بي الفاقة هذا المبلغ، أردت حقا أن أساعد أمي ولكن ذلك ليس الدافع الحقيقي، كفى يا سونيا لا تعذبيني.

فقالت الفتاة وهي تضرب يدا بيد:

- أيمكن أن يكون هذا، تقول إنك قتلت لتسرق، أنت الذي تجرد نفسك من كل درهم لكي تساعد الآخرين؟ آه.. إذن فتلك النقود التي تبرعت بها لكاترين إيفانوفا كانت...

فقاطعها بحدة:

- كلا يا سونيا، لقد جاءتني هذه النقود من مصدر آخر، جاءتني من أمي بعد الجريمة. أما العجوز فلم أعلم أنني سرقت منها مالا، إنني انتزعت كيس نقود كان يتدلى من عنقها، ولكني لا أعرف محتوياته،

وهذا الكيس والحلي الأخرى مخبوءة الآن تحت حجر بالقرب من جدار متهدم في الضواحي.

- وكيف لم تأخذ شيئا وقد قتلت لتسرق؟

فهز رأسه ولم يجب. قال بعد لحظة:

- إنني أسأل نفسي الآن يا سونيا، لماذا اعترفت لك؟ لماذا اعترفت لك على الإطلاق، ولماذا قابلت اعترافي بأن ألقيت نفسك فوق صدري وقبلتني؟.. أكبر ظني أنني لم أعترف إلا لأنني عجزت عن رفع الحمل الثقيل الذي يبهظني، فأردت أن أشاطر فيه إنساناً آخر وأردت أن أجد في عذاب الآخرين خروجاً من عذابي، ولكن أنت كيف تحبين جبانا مثلي؟

- إنني أحبك لأنك شقي مثلي.

فنظر إليها في حزن وقال:

- لقد كنت أطمع في أن أصبح نابليونا آخر، ولذلك فقتلت، فهل فهمت الآن؟

فأجابته ببساطة:

- كلا، ولكن تكلم، وسأفهم.

- أواثقة أنت من أنك ستفهمين؟ لقد قلت لنفسي في أحد الأيام، لنفترض أن نابليون وجد نفسه في مكاني، ورأى أنه لكي يشق طريقه للمستقبل يتعين عليه أن يرتكب جريمة، فهل كان يحجم عن قتل امرأة عجوز ليستعين بأموالها في دعم مستقبله؟.. لقد فكرت في ذلك كثيرا، وشعرت بأن الرجل الذي قتل زهرة شباب أوروبا وأحرق موسكو ما كان يحجم قط عن ارتكاب هذه الجريمة، ليضع الحجر الأساسي لأعماله العظيمة. وهكذا ارتكبت الجريمة لا لأغزو أوروبا وأثب على مصر وأقهر الإنجليز، وإنما لأشق طريقي في مستقبل شريف سعيد أستطيع معه أن أعول أمي، وأصون شرف أختي، وأتزوج لأترك من بعدي ذرية صالحة تنفع الوطن. وكان الغرض أسمى من الوسيلة، وكانت شرف الغاية جديرا بأن يمرر قتل تلك الحشرة القذرة.

- ولكن تلك الحشرة القذرة كانت مخلوقا آدميا، وقد قتلتها، هل تفهم أنك قتلت نفسا حرم الله قتلها؟

- هل قتلت حقا يا سونيا؟ هل قتلت تلك العجوز؟ كلا، إنني قتلت نفسي

ودفن رأسه بين كفيه، وغمغم:

- أواه يا إلهي، ماذا يجب أن أصنع الآن؟

فأمسكت بساعده بقوة وقالت:

- ماذا يجب أن تفعل؟ انهض لساعتك واخرج إلى أحد الميادين واصرخ بأعلى صوتك: "أنا القاتل". فذعر روديون وقال:

- أتريدينني أن أتهم نفسي؟ أتريدينني أن أضع عنقي في حبل المشنقة؟

- يجب أن تفكر فتنال الغفران.

- لن أتهم نفسي يا سونيا.

- وتعيش مع ذلك؟ وكيف تعيش؟ وكيف تنظر في وجه أمك؟ لقد أدركت الآن لماذا حلت القطيعة بينك وبين أمك وأختك.

- إنهم لا يملكون الدليل على جريمتي يا سونيا، وإذا قلت لهم أنني مجرم اتهموني بالجنون، كلا، لن أفعل ذلك يا سونيا.

- وكيف تحمل وزر الجريمة بقية حياتك؟

فدفن رأسه بين كفيه مرة أخرى، وسالت الدموع من بين أصابعه، ولزمت الفتاة الصمت حتى رفع رأسه، كان له في عينيه بريق عزيمة جديدة، سأل:

- أتزورينني في السجن يا سونيا؟

- نعم، نعم.

وساد الصمت بينهما مرة أخرى. كانا جالسين لصق بعضهما أشبه بسفينتين خبطتهما العاصفة وقذفت بهما إلى شاطئ صحراوي، وظلا هكذا حتى سمعا جلبة في الخارج، فنهضا واقفين. واشتدت الجلبة، واقتربت وتبينت سونيا صوت بولنيكا وهي تبكي. هتفت: "يا إلهي ماذا حدث؟" وأسرعت إلى الباب وفتحته، وما كادت تفعل ذلك حتى ارتدت على عقبيها.

ودخل الغرفة ثلاثة رجال يحملون جثة هامدة تقطر منها الدماء. كانت جثة كاترين إيفانوفا. قال أحد الرجال: "لقد ألقت بنفسها في النهر".

الفصل الثاني

ها هو المشهد يتكرر في نفس الغرفة التي امتلأت بالغرباء، كما امتلأت غرفة كاترين إيفانوفا يوم مصرع زوجها، ودهش روديون حين شعر بيد توضع على كتفه، وسمع صوتا يقول في همس:

- روديون رومانوفتش، أريد أن أتحدث إليك.

نظر إلى المتكلم، فعرف فيه أركاديوس إيفانوفتش، سأل نفسه:

- ماذا جاء بالرجل هنا، وماذا يبغي منه؟

وانتحى به أركاديوس ناحية وقال له:

- أتمنى أن أعرف قصة هذه الأسرة التعسة، وأريد أن تكون جنازة المرأة على نفقتي، إنني أملك من المال أكثر من حاجتي. أما بولنيكا والطفلان فسأبعث بهما إلى أحد الملاجئ وسأقف عليهما ألف وخمسمائة روبلا إلى أن يبلغا سن الرشد، وبهذا تستطيع سونيا أن تطمئن. أما سونيا نفسها فإن في نيتي أن أعمل على إنقاذها من هذه الأوحال، إنها مخلوقة تعتمل في أعماقها أنبل العواطف الإنسانية، أليس كذلك؟ ورجائي أن تحدث شقيقتك دونيا رومانوفتش عن الوجوه التي شرعت أتفق فيها المبلغ الذي كنت قد أوقفته عليها.

سأله روديون:

- ولماذا كل هذا الكرم؟

فضحك أركاديوس وقال:

- ألم أقل لك أنني أملك من المال أكثر مما أستطيع إنفاقه؟ أليس من حقي أن أرفه من آلام البشر مهما يكن من أمر فإن هذه المرأة التعسة (وأشار إلى جثة كاترين إيفانوفا) لم تكن حشرة قذرة تستحق القتل، وفي اعتقادي أنه لولا مساعدتي أكان مصير بولنيكا كمصير أختها.

كانت عباراته تنطوي على ثورة صريحة، وكان يتكلم وعيناه لا تتحولان عن وجه محدثه؛ فر لون روديون؛ لقد استخدم أركاديوس ألفاظا أستخدمها هو في حديثه مع سونيا. رمقه بنظرة عجيبة وسأل بلسان متلعثم:

- كيف علمت ذلك؟

فابتسم أركاديوس وقال:

- إن مدام روسليخ صديقتي، وأنا أقيم في الغرفة المجاورة.

هتف روديون وهو يرتعد:

- أنت؟ أنت تقيم هنا؟

- نعم يا صديقي، وأقسم لك أن قصتك أدخلت على نفسي الكثير من التسلية.

الفصل الثالث

ما أن قرأت دونيا الرسالة للمرة الخامسة لم تُصدق عينيها، سألت نفسها:

- تُرى هل نصب لها أركاديوس شركا؟ ولكن من يعلم فربما كان صادقا، وبعد فإنها تستطيع أن تقطع الشك باليقين دون أن تستهدف للخطر.

وأسرعت إلى المكان الذي ذكره أركاديوس في رسالته فوجدت الرجل ينتظر بفارغ الصبر، حياها بأن أحنى قامته باحترام، ولكنها لم ترد التحية. سألته:

- ما هذا الذي ذكرته في رسالتك يا سيدي؟

- عفوا، ولكن من الخير ألا تتشدق بأسرار الناس على قارعة الطريق، وبعد فإنك قد تجدين من الضروري أن تتصلي بسونيا مارميلادوف للتأكد من صدقي، وسونيا مارميلادوف تقيم في ذات المنزل الذي أقيم فيه، فإذا رفضته لن ترافقيني، رفضت بدوري أن أبوح بكلمة واحدة من السر الخطير الذي أشرت إليه في رسالتي.

فترددت دونيا.. قال أركاديوس:

- مم تخافين؟ نحن لسنا في الأرياف، فالشوارع هنا غاصة بالناس

والبيوت مزدحمة بالسكان

فقالت الفتاة وقد حسمت أمرها:

- أنا أعلم أنك رجل لا تقيم للشرف وزنا، ولكني لا أخشاك، هلم بنا.

ورافقها إلى المنزل وقال لها:

- إنني أقيم في هاتين الغرفتين، انظري إلى هذا الباب، إنه يفصل بين غرفتي وغرفة سونيا مارميلادوف كما قلت لك، ثم انظري إلى هذا المقعد، إنني قضيت يومين كاملين جالسا عليه، أراقب وأنصت.

- هل كنت تسترق السمع؟

فأجاب في غير حياء: "نعم"، وقدم إليها مقعدا ولكنها لم تجلس، قالت وهي تتناول ورقة من صدرها:

- ها هي الرسالة التي بعثت بها إلي، فهل يمكن أن يكون ما جاء بها صحيحا؟ إنك تزعم أن أخي قد ارتكب جريمة قتل، ويجب أن أقول لك أنني أعرف قصة هذه الجريمة، وقد حدثني ديمتري بركوفتش عن وساوس أخي وأوهامه، وكيف نبتت هذه الأوهام بعد مرضه بسبب معاملات كانت بينه وبين العجوز، وكيف أثرت هذه الأوهام على صحته وحالته النفسية، ولكننا جميعا واثقون – وبركوفتش في طليعتنا – أن روديون بريء وليس ثمة دليل أو شبه دليل على جريمته

المزعومة، فإذا كان روديون قد تحدث بأوهامه إلى سونيا، وكنت قد سمعت هذا الحديث وتريد أن تنقله إلي فإنني أنصح لك أن توفر على نفسك هذا العناء.

فقال أركاديوس:

- دعيني أقول لك أولا: إنك فتاة باسلة، وإنك أحسنت صنعا بقدومك الآن، لأن أخاك ارتكب جريمة قتل، وأنا لا أرسل الكلام على عواهنه، فقد سمعت اعترافه كاملا ومدعما بالأدلة. نعم، إنه اعترف بين يدي سونيا كما يعترف الإنسان بين يدي القس ويطالب الغفران. لقد قتل العجوز المرابية ثم فاجأته أختها فقتلها كذلك، وكان غرضه من الجريمة أن يسرق، وقد سرق.

فصاحت دونيا وقد امتقع لونها:

- هذا مستحيل، هذا مستحيل، لا يمكن أن يكون قد قتل ليسرق.. هذه فرية دنيئة.

- إن السرقة هي مفتاح الجريمة، وقد سرق نقودا ومجوهرات ولكنه لم يمسها بل أخفاها في مكان ذكره.

- هذا كذب، هذا كذب، إنك رأيته، فهل تعتقد أنه يقتل ليسرق؟

- أنا لا أعتقد شيئا يا دونيا رومانوفتش، ولكني أعلم أن هناك دوافع

خارجية عن إرادة الإنسان، تسوقه إلى الجريمة في بعض الأحيان، وقد سمعت منذ أيام عن سيد سرق خادمه. ومن يدري فربما ظن أخوك أنه يرتكب هذه الجريمة خدمة للإنسانية. لقد كنت مثلك على استعداد لإنكار هذه القصة واستنكارها لو أنني سمعتها من طريق مباشر، ولكني سمعتها ممن معه، ولا أستطيع أن أكذب أذني، إلى أين أنت ذاهبة يا دونيا رومانوفتش؟

- يجب أن أرى سونيا مارميلادوف، أين الباب المؤدي إلى غرفتها؟

- يخيل إلي أنه ليس في استطاعتك الاجتماع بها في التو واللحظة؛ فقد انطلقت لزيارة أخواتها في ملجأ الأطفال، ولكن كوني مطمئنة يا دونيا، وتذكري أن لأخيك أصدقاء، سوف أعمل على إنقاذه، فهل تريدينني أن أفر معه إلى الخارج؟.. إن في استطاعتي أن أسهل له سبيل الفرار إلى أمريكا، أما الجريمة ذاتها فأنا واثق أنه سيكفر عنها، وأنه لا يزال قادرا على فعل الخير، ومن يدري، فقد يصبح في أحد الأيام رجلا عظيما.

- قبحك الله، أتسخر منا في هذه الظروف؟

- إلى أين تريدين الذهاب؟

- يجب أن أراه، إننا دخلنا من هذا الباب، فلماذا أجده مغلقا؟

- لقد رأيت من الحكمة أن أغلق الأبواب لكيلا يسمح أحد حديثنا.

ولكن لماذا تنطلقين الآن للبحث عن أخيك؟ إنك تعملين على دماره، فهو إذا شعر بافتضاح أمره لم يتردد في تسليم نفسه. يضاف إلى ذلك أنه ربما كان موضوعا تحت مراقبة البوليس، فأية حركة طائشة من ناحيتك قد تقطع عليه سبيل الفرار، تريثي الآن، ولنفكر معا في طريقة لإنقاذه إنني ما دعوتك إلا لهذا الغرض.

فتهالكت الفتاة على المقعد وهتفت الفتاة في يأس:

- وهل يمكن إنقاذه؟

فاقترب منها أركاديوس وقال بصوت خافت:

- إن الأمر يتوقف عليك يا دونيا.

فذعرت الفتاة وتراجعت بمقعدها قليلا. قال:

- كلمة واحدة منك تكفي لإنقاذه، أنت تعلمين أنني غني، وأن لي أصدقاء أقوياء، وفي استطاعتنا أن نساعده على الفرار، فماذا تقولين في ذلك؟ إن في استطاعتي كذلك أن أعد العدة لرحيلك مع والدتك إلى الخارج، أنت تعلمين أني أحبك، وأنني أجود بحياتي عن طيب خاطر إرضاء لك، فمريني أصنع المعجزات في سبيلك وسبيل الذين تحبينهم.

فنهضت واقفة وهي تصيح:

- افتح الباب في الحال.. يا إلهي.. ألا يوجد أحد هنا؟

فوقف أركاديوس بدوره، ومرت على شفتيه ابتسامة مريرة وقال:

- كلا.. لا يوجد إنسان على مقربة منا، فاصرخي ما شئت فلن يسمعك أحد.

- أين المفتاح، افتح الباب أيها الرجل الدنيء.

- لا أستطيع أن أفتح الباب فقدت المفتاح.

فصاحت وقد فر لونها، إذن فقد نصبت لي فخا. وتراجعت إلى أقصى ركن في الغرفة وتحصنت وراء طاولة صغيرة وجدتها هناك، وراحت تراقب حركات غريمها في جزع وذعر. قال وهو يبتسم:

- لقد تكلمت الآن عن فخ يا دونيا رومانوفتش، فإذا كان هناك فخ فيجب أن تعلمي أنني اتخذت جميع الاحتياطات التي يتطلبها. إن سونيا ليست في غرفتها، ومدام روسليخ لا تعود إلا غدا، ثم إنني أقوى منك ساعدا وليس ثمة ما أخشاه، لأنك إذا شكوتني لم أتردد في الوشاية بأخيك. يضاف إلى ذلك أن أحدا لن يصدقك، والفتاة التي تذهب وحدها وباختيارها إلى بيت الرجل تسقط حجتها ضده.

فصاحت باحتقار:

- الويل لك أيها التعس.

- إنني أرى رأيك من أن الاعتداء عليك في مثل هذه الحالة يكون جريمة منكرة، ولم أضع أمامك هذه الظروف والملابسات إلا لأيسر لك سبيل الوصول إلى قرار حكيم يصون كرامتك وينقذ أخاك، ويوفر على أمك كثيراً من الهموم والأحزان، ففكري مليا يا دونيا وسأنتظر قرارك.

وجلس على مقعد، ولكن الفتاة اتخذت قراراها بأسرع ما كان يتصور، إذ مدت يدها إلى جيبها وأخرجت مسدسا صغيرا صوبته نحوه وهي تقول:

- هذا جوابي.

فحملق نحو المسدس، وهتف وهو يبتسم:

- آه! ذلك يغير الموقف تغييرا تاما، ولكن من أين جاءك هذا المسدس يا دونيا! لعلك استعرته من بركوفتش، ولكن لا! إنه مسدسي وقد عرفته، إنني بحثت عنه طويلا ولم أجده.

- نعم إنه مسدسك، وقد تحصلت عليه يوم شعرت بنواياك، ولم أتمكن من رده عندما غادرت منزلك.

ثم صاحت به فجأة:

- قف حيث أنت، أقسم أن أطلق الرصاص عليك إذا تقدمت خطوة أخرى.

وتأهبت لإنفاذ وعيدها؛ فسألها وهو لا يزال يتقدم نحوها:

- وأخوك ماذا يكون مصيره؟

- أبلغ بأمره إذا شئت، ولكن لا تتقدم وإلا أطلقت الرصاص.

- أعلم أنك ستطلقين الرصاص، أيتها الوحش الجميل، أطلقي الرصاص وتابع تقدمه.

صوبت الفتاة المسدس ولمعت عيناها، ولم يرها أركاديوس أجمل مما كانت في تلك اللحظة؛ فتقدم خطوة أخرى، فأطلقت المسدس واخترقت الرصاصة شعر رأسه وغاصت في الجدار. وقال وهو يضحك:

- يا إلهي.. ما أقساك لقد صوبت الرصاصة نحو رأسي، ولكن ما هذا؟ دم.

وأخرج منديله وراح يجفف قطرات الدم، إذ أن الرصاصة خدشت رأسه، ولم يلبث أن قال:

- أرى أنك أخطأت الهدف فأطلقي رصاصة أخرى، هاأنذا في الانتظار، إذا أمهلتني هجمت عليك، ومنعتك من الدفاع عن نفسك.

فصاحت به الفتاة:

- لا تتقدم.. سأقتلك هذه المرة

ولكنه تقدم، كان من المستحيل أن تخطئه إذا أطلقت، ولكنها لم

تفعل بل ألقت بالمسدس بعيدا، وذهل أركاديوس، ولكن لم يمنعه ذهوله هو أن يحيط خصرها بساعده، ولم تقاومه الفتاة، وقالت ضارعة:

- دعني أذهب؟

فارتجف حين سمع نبراتها الضارعة المتوسلة، وسألها:

- ألا تحبينني؟

فهزت رأسها سلبا.

- أليس في استطاعتك أن تحبيني في المستقبل.

- أبدا.

فصمت، وبدا كأن زوبعة تعصف في جمجمته، وأخيرا وضع يده في جيبه وقال:

- إليك المفتاح، فأسرعي، أسرعي، أسرعي.

واستمر يردد هذه الكلمة ولا ينظر إليها كأنه يخشى إذا رآها يعدل عن قراره.

الفصل الرابع

شعر روديون بأنه لا يمقت إنسانا في الوجود كما أصبح يمقت برفيريوس وأركاديوس، وأسف على أنه لم يقتل أحدهما بدلا من العجوز، كان هذان الرجلان يسيطران على حياته ومصيره، فكلاهما يعلم عن يقين أنه قاتل. وتناول قبعته وهم بالانصراف من غرفته وهو يهمهم:

- سوف نرى ماذا يكون من أمرهما.

بيد أنه ما كاد يفتح الباب حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام برفيريوس بتروفتش. وهبط قلب القاتل، وترنح كالثمل، ولكنه سرعان ما تماسك، وقال لنفسه:

- لقد أزفت الساعة، ولكن لماذا جاء متسللا كالقط؟ ترى هل كان ينصت ببابي؟

وقال برفيريوس وهو يبتسم بلطف:

- إنك لم تكن تنتظرني، أليس كذلك يا روديون رومانوفتش! لقد مررت ببابك، فخطر لي أن أزورك؟ إلى أين ذاهب الآن؟

فقال روديون:

- تفضل بالجلوس يا برفيريوس بتروفتش.

فجلس برفيريوس، وأخرج من جيبه لفافة تبغ، وراح يشغلها ببطء ثم قال:

- ما أقبح التبغ، أنني أسعل بسببه دائما، ولكنني لا أستطيع الامتناع عن تدخينه، لقد ذهبت إلى الدكتور بوتيكين منذ أيام فنصحني، ودق على صدري ثم قال لي بلهجة قاطعة: إن التبغ سيقتلك فامتنع عن التدخين، ولكن كيف أستطيع الامتناع؟ وبماذا أستعيض عنه؟ لا بد للإنسان في هذه الحياة العصرية من شيء يتلف صحته ويقتله، أليس كذلك؟ ها.. ها.. ها..

وهنا قال روديون لنفسه:

- هو ذا قد بدأ مداعباته السمجة!

وقال برفيريوس:

- هل تعلم أنني جئت لزيارتك منذ يومين وإنني دخلت هذه الغرفة! لقد مررت من هنا كما فعلت الآن فخطر لي أن أزورك ووجدت بابك مفتوحا، فذهلت ولكني لم أجدك، فانصرفت، ألا تغلق بابك أبدا؟

فقطب روديون حاجبيه، وأدرك برفيريوس ما يدور بخلده فقال:

- إنني جئتك يا عزيزي روديون، لأنني رأيت من واجبي أن أوضح بعض المسائل تختلف عن مقابلتنا السابقة، ولكني أعتذر إليك عما بدا من خشونتي نحوك في تلك المقابلة. والواقع أنك سريع الانفعال بقدر ما أنا عصبي المزاج، والله وحده يعلم كيف كان يمكن أن تنتهي تلك المقابلة لو لم يحضر نيكولا.

وهنا قال روديون لنفسه:

- ترى ماذا يريد؟

قال قاضي التحقيق:

- إنني فكرى في أن الصراحة بيننا أجدى من المحاورة بغير طائل، وإني أعترف بأن أسلوبي في الحديث كان جديرا بأن يزعجك ويضايقك، ولكني لا أحب أن أتهم بالقسوة، ولذا أرى لزاما عليَّ أن أوضح لك الظروف التي ألجأتني إلى هذا الأسلوب. إنك حركت ريبتي لأول مرة بعد نوبة الإغماء التي أصابتك في مكتب البوليس، ولكني لم أقم كبير وزن لهذه الظاهرة، وقلت لنفسي: لقد كان الرجل مريضا. ثم جاءت حكاية المقال، وأقول لك الحق أنني كقارئ عادي قد وجدت لذة في قراءته، ولكنني قلت لنفسي كقاضي تحقيق: إن هذا الكاتب يدافع عن وجهة نظره بحماسة تصل إلى درجة التعصب. ثم كان هذيانك وأنت محموم، وكانت المناقشة الجريئة التي دارت بينك وبين زيمتوف.. واحدة من هذه الملابسات كانت تكفي في ذلك

لإثارة الشكوك حولك، ولعلك تسألني لماذا لم تقم بتفتيش غرفتي لكي تقطع الشك باليقين، وجوابي على هذا السؤال أنني فتشت غرفتك تفتيشا دقيقا وأنت مريض، وكان من الطبيعي ألا أجد ما يفيد التحقيق. بيد أنني قلت لنفسي: إن هذا الشاب سوف يأتي لمقابلتي إذا كان مجرما فلا بد أن يأتي. ولا شك أن صديقك بركوفتش قد قص عليك حكاية اهتمامي بأمرك ورغبتي في التعرف بك، كانت حكاية هذا الاهتمام سلما للوصول إليك والاجتماع بك وسبر غورك عن كثب، والوقوف على مبلغ إيمانك بالنظرية التي أوردتها في مقالك. ثم جاءت زيارتك الليلة لبيت العجوز، وجذب حبل الجرس واستفسارك عن آثار الدماء، فقلت لنفسي: ها هو ذا دليل جديد لا ينقض. ولقد كنت أود أن أدفع من جيبي الخاص ألف روبلا لأن أراك وأنت تصغي إلى ذلك الرجل الذي وصفك بأنك قاتل، دون أن تجرؤ على تكذيبه. أقول لك الحق: إنني أغمضت عيني مرارا وتخيلت هذا المنظر العجيب، ولم أتمالك نفسي من الاستغراق في الضحك. كل هذه الاعتبارات والظواهر مجتمعة كانت كفيلة بإثارة ريبتي يا روديون رومانوفتش، ومن هو المحقق؟ إنه يجب أن يكون سوء الظن من أهم صفاته. وأخيرا دفعك الشيطان إلى مقابلتي، ولولا قدوم نيكولا وأنت تذكر كيف دخل علينا هذا الغبي، لقد كان ظهوره أشبه بانقضاض الصاعقة، ولكن ألم تلاحظ كيف أنني ارتبت في اعترافاته؟ الواقع أنني قتلت مسألته فحصا ودرسا. إن لهذا الشاب عقلية الأطفال وقد علمت أنه كان في شبابه شديد الورع والتقوى، ولكنه ما كاد يصل إلى

سان بطرسبرج حتى تدهورت أخلاقه وعرف حانات الخمر وبؤر الفساد، والظاهر أنه ما كاد يخلو إلى نفسه في السجن ويستعرض ماضيه وحاضره ومستقبله حتى شعر بأن المهمة التي وجهت إليه ليست إلا نوعا من الانتقام الإلهي، ولعله شعر بالندم قبل ذلك حين فكر في الانتحار، ومهما يكن من أمر فقد هدته عزيمته الضعيفة إلى وجوب التكفير عن ماضيه بطريقة ما، وطلب له بدافع من الورع الذي تنبت جذوره في نفسه منذ الصغر أن يكفر عن آثامه باحتمال عبء هذه الجريمة التي لم يرتكبها ومن ثم كان الاعتراف الذي سمعته، ولكني ما كدت أضيق عليه الخناق وأشدد عليه التفكير حتى تضاربت أقواله وبرزت براءته دون أن يشعر.

فهتف روديون بصوت متقطع:

- وبرزت براءته! وإذن من الذي ارتكب الجريمة؟

فدهش برفيريوس وقال:

- من ذا الذي ارتكب الجريمة؟ أنت طبعا يا روديون رومانوفتش.

فنهض روديون فجأة، وتقلصت عضلات وجهه، وقال برفيريوس:

- ها أنت ذا ترتجف يا روديون، ولكن يخيل إلي في الواقع أنك لم تفهم الغرض من زيارتي، لقد قلت لك أنني جئت لأتحدث إليك في صراحة.

فدافع روديون عن نفسه ببساطة الطفل وقال:

- لكني لم أرتكب هذه الجريمة.

- بل قد ارتكبتها يا روديون، أنا أعلم أنك ارتكبتها.

فساد صمت عميق، ووضع أصابعه في شعر رأسه ثم قال:

- أرى أنك عدت إلى ألاعيبك السابقة يا برفيريوس.

- دع ألاعيبي جانبا، أننا الآن على انفراد ولا يوجد بيننا شهود، فسواء اعترفت أو أنكرت فذلك لا يجدي لأنني مقتنع.

- ولماذا لا تلقي القبض علي ما دمت مقتنعا؟

- ذلك ما سأفعله، ولكني سأمهلك يومين لي تفكر وتتدبر الأمر وتحاول الإفادة من الظروف المخففة التي أوجدها المشرع لأولئك الذين يندمون ويتقدمون من تلقاء أنفسهم للتكفير عن خطاياهم، إنني أترك هذه المهلة، وأسأل الله أن يهديك إلى سواء السبيل.

فسأله روديون وهو يبتسم:

- هب أنني فررت؟

- إنك لن تفر، وإذا قررت ستعود من تلقاء نفسك، لأنك لا تطيق حياة

الهارب. كلا يا روديون، إنك لن تفر.

فتناول روديون قبعته ونهض واقفا، فحذا برفيريوس حذوه، وقال الأول:

- لا تتوهم إنني اعترفت لك بشيء يا برفيريوس، إنك رجل غريب الأطوار وقد أصغيت إليك بدافع الفضول، ولكن تذكر أنني لم أعترف.

- سأذكر ذلك يا صديقي فاطمئن، ولكني أحب أن أرجوك في أمر، إذا طاب لك خلال اليومين القادمين أن تتخلص من حياتك فلا تنسى أن تكتب كلمة تشير فيها إلى مكان الحجز الذي وضعت المسروقات تحته، أكون شاكرا لك إذا فعلت، والآن إلى اللقاء، وليهديك الله إلى سواء السبيل.

الفصل الخامس

مشى روديون مهموماً ومشغولاً في تفكير عميق..

بالتأكيد برفيريوس لا يملك أي دليل، ولكنه يعرف الحقيقة كاملة فمن أخبره بها؟ هل عرف الحقيقة من مجرد الاستنتاج والاستدلال؟ مستحيل، إذن لا بد أن يكون أركاديوس وجمد في مكانه. نعم لا بد أن يكون أركاديوس قد وشى به. هز كتفيه استخفافا، لقد استقر رأيه على أمر ما، وأصبح لا يهمه أن يعلم الناس جميعاً، شخصان فقط يهمه ألا يعلما بجريمته، هُما أعز الناس لديه، وقد كان في تلك اللحظة في طريقه لزيارتهما.

طرق الباب ففتحته أمه وجمدت المرأة المسكينة حين رأته وألجمتها الدهشة والسرور وصاحت بصوت يرتجف من الانفعال:

- أهذا أنت قد عدت أخيراً؟ لا يجب أن تضايقك دموعي يا روديون، إنها دموع الفرح والسرور تعال واجلس يا ولدي، أرى أنك متعب، ولكن كيف تلوثت ثيابك هكذا؟

- لقد اتسخت ملابسي من الشوارع الموحلة.

- لا تعتقد أنني سأجري معك تحقيقا يا ولدي، إنك حُر في أن تتصرف

بحياتك كما شئت، ولكن ألا تعلم يا روديون أنني قرأت مقالك للمرة الثالثة، لقد جاءني بركوفتش بالمجلة التي نشرت هذا المقال، وقال لي: إن روديون يقضي كل وقته في كتابة مقالات من هذا النوع. أنا واثقة من أنك ستحتل مكانتك يوما ما في طليعة المفكرين، إنك لا تعلم كم أنا فخورة بك يا ولدي، كم يُضحكني ما يذيعه عنك أولئك البلهاء، ألا تعلم يا روديون أن ذلك الطبيب الأحمق يتوهم أنك معتوه؟ ها.. ها.. ها.. بودي أن أعلم بأي مقياس يقيسون العقل؟

- وأين دونيا يا أماه؟

- لا أعلم يا ولدي، إنها تخرج دائما، ولكن صديقك بركوفتش يعطف عليَّ العطف كله، ولكن لنتكلم عنك أنت، وسوف أقرأ كل ما تدبجه ببراعتك وبحسبي منك أن تأتي لزيارتي من وقت لآخر.

وانفجرت باكية فجأة، وقالت على الأثر:

- لا تضايقك دموعي يا ولدي، ما أشد حماقتي.

- أصغي إلى يا أماه.

فاقتربت منه المرأة التعسة، فقال لها:

- تكلمي معي يا أمي العزيزة، هل تحبينني دائما، بالرغم من كُل ما حدث، ورغم كل ما يصل إلى سمعك؟

وتفجرت هذه الكلمات من قلبه قبل أن يتحكم فيها لسانه، فصاحت أمه:

- وهل تشك في ذلك يا صغيري؟ ومن ذا الذي يجرؤ على أن يتكلم عنك بسوء في حضرتي؟

- إن غرضي من هذه الزيارة أن أؤكد لك أنني كنت أحبك وسأحبك دائما، فهمها أصابك من شك فاذكري دائما أن ابنك يحبك أكثر من نفسه.

احتضنت الأم ولدها لصدرها وبكت وهي تقول:

- اعتقدت أن سبب بعدك عنا هو كُرهك من معيشتنا، ولكني أشعر الآن بأن السبب هو خوفك من نكبة تهددك، لقد كانت دونيا تهذي في نومها ليلة أمس، وكان اسمك على لسانها، ففهمت من هذيانها بعض أشياء وقضيت هذا النهار قبل قدومك وأنا أشبه بالمحكوم عليه الذي ينتظر الإعدام، هل في نيتك أن ترحل يا روديون؟

- نعم يا أماه.

- هذا ما ظننت، ولماذا لا أرحل معك، ولماذا لا ترحل دونيا كذلك؟ إنها تحبك حب عبادة، كذلك تستطيع أن تصطحب سونيا مارميلادوف، لقد بدأت أحبها كابنتي.

- **وداعا يا أماه.**

- **أترحل اليوم.. الآن؟**

- **نعم يا أماه، يجب أن أرحل.**

- **ألا أمضي معك؟**

- **كلا يا أماه، ولكنك تستطيعين أن تصلي وتسجدي وتبتهلي إلى الله من أجلي، فقد يجيب دعوتك.**

- **ليباركك الله يا ولدي.**

الفصل السادس

ما أن دخل روديون إلى غرفته حتى وجد أخته دونيا في انتظاره، كانت الفتاة شاحبة اللون بادية الانزعاج وبادرته بقولها:

- لقد انتظرت طويلا عند سونيا مارميلادوف.

فقال وهو يجلس مُتعباً في مقعده:

- إنني متعب يا دونيا، إنني في أشد الحاجة إلى الراحة.

- أين كنت؟ وأين قضيت ليلة أمس؟

- صدقيني لا أعلم يا عزيزتي، كنت أطوف الشوارع على غير هدى، وقضيت وقتا ليس بالقليل على ضفة نهر نيفا، أردت أن أفكر ولكني كنت مضطرب الذهن.

فهتفت الفتاة:

- حمدا لله، لقد خشينا – أنا وسونيا – أن تكون قد زهدت في الحياة.

ابتسم بمرارة قائلاً:

- إنني شقي يا دونيا.

- ولكنك ستنعم بالسعادة متى كفرت عن.....

فنظر إليها، والتقت عيونهما...

- وإذن فقد عرفت السر.

وقال لها في هدوء:

- نعم، وسأكفر بغير إهمال.

فأخرجت من جيبها صليبا خشبيا صغيرا وقالت:

- لقد بعثت إليك سونيا بهذا.

فتناول الصليب، وتأمله طويلا ثم غمغم:

- لقد كنت بحاجة إليه.

ونهض واقفا فسألته:

- إلى أين أنت ذاهب يا روديون؟

فلم يجب، وأدركت الفتاة كل شيء، وأخيراً قال:

- وداعا يا دونيا.

حاول أن يمضي إلا أنها ألقت بنفسها بين ساعديه، وخنقتها العبرات.

- يجب أن أقول لك قبل أن أنسى يا دونيا أن ديمتري بركوفتش شاب نبيل، طيب القلب، وأنك ستكونين سعيدة معه.

الفصل السابع

- ما اسم هذا الرجل الذي أطلق الرصاص على نفسه؟

- اسمه أركاديوس إيفانوفتش.

تجمد روديون في مكانه بعد أن سمع هاتين العبارتين وهو يدخل مكتب البوليس، ثم سأل أحد الموظفين اللذين دار بينهما هذا الحديث:

- أتقول أن أركاديوس إيفانوفتش هو من أطلق الرصاص على نفسه؟

- نعم.

وهنا سمع روديون صوتا يقول:

- هل كنت تعرفه يا روديون رومانوفتش؟

وكان المتكلم هذا الضابط إيليا بتروكوف، وأجاب روديون:

- نعم، كنت أعرفه، أو على الأصح كانت أختي تعرفه.

- الظاهر أنه كان سكيرا عربيدا سيئ السيرة، ولكنه كان يملك ثروة طائلة.

- يسرني الآن أنك تتمتع بصحة جيدة يا سيدي.. هل من خدمة أقدمها لك؟

حاول روديون أن يتكلم فاقترب من مكتب الضابط ولكنه قبل أن يتكلم أحس بدوار فأسند رأسه على مكتب الضابط، وصاح في ذعر:

- ماذا بك؟ هل عاودك المرض؟ اجلس، إليك جرعة ماء.

فجلس روديون وقال:

- أنا الذي...

- تناول جرعة الماء..

هُنا رفع روديون كوب ماء بيده وقال بصوت خافت ولكنه ثابت النبرات:

- قاتل إيلينا إيفانوفا... هو أنا... كما أنني قتلت أختها إليزابيث... لقد قتلتهما بالبلطة... وما دفعني لارتكاب هذه الجريمة هو سرقة المال والمجوهرات التي لديهما.

الفهرس

من هو دوستويفسكى؟ ٥

من مذكرات زوجته: قصة" الجريمة والعقاب" ٩

القسم الأول

الفصل الأول ١٨

الفصل الثاني ٢٨

الفصل الثالث ٤٦

الفصل الرابع ٥٧

الفصل الخامس ٥٩

الفصل السادس ٧١

القسم الثاني : الأم والابن

الفصل الأول ٩٠

الفصل الثاني ١٠٤

الفصل الثالث ١٠٨

الفصل الرابع ١٢٣

الفصل الخامس ١٣٧

الفصل السادس ١٥٠

القسم الثالث : العقاب

الفصل الأول ١٦٢

الفصل الثاني ١٦٥
الفصل الثالث ١٧٠
الفصل الرابع ١٧٥
الفصل الخامس ١٨٨

القسم الرابع : الشك

الفصل الأول ١٩٥
الفصل الثاني ٢٠٠
الفصل الثالث ٢٠٧
الفصل الرابع ٢١٤
الفصل الخامس ٢٢٠

القسم الخامس : القصاص

الفصل الأول ٢٢٨
الفصل الثاني ٢٣٧
الفصل الثالث ٢٣٩
الفصل الرابع ٢٤٨
الفصل الخامس ٢٥٥
الفصل السادس ٢٥٩
الفصل السابع ٢٦٢